21-سورة الانبياء-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾

*البخارى4739 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ الكَهْفُ وَ مَرْيَمُ وَ طه وَ الأَنْبِيَاءُ:-هُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ(القديم أو هو كل ما بلغ الغاية فى الجودة)
وَ هُنَّ مِنْ تِلاَدِي(مما حفظ قديما و مراد ابن مسعود أنهم من أول ما تعلم من القرآن و أن لهن فضلا لما فيهن من القصص و أخبار الانبياء و الامم)

يوم الحساب و عاقبة تكذيب المشركين 1-10

(ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ)
هذا تعجب من حالة الناس و أنه لا ينجع فيهم تذكير و لا يرعون إلى نذير و أنهم قد قرب حسابهم
و مجازاتهم على أعمالهم الصالحة و الطالحة

و الحال (وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ)عما خلقوا له

(مُّعۡرِضُونَ)و إعراض عما زجروا به. كأنهم للدنيا خلقوا و للتمتع بها ولدوا
و أن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير و الوعظ و لا يزالون في غفلتهم و إعراضهم
*الكبرى للنسائى11268 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَوْلُهُ:-{وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}[مريم: 39] قَالَ:-«فِي الدُّنْيَا»
*وَ قَالَ تَعَالَى:{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النَّحْل: 1]
وَ قَالَ تَعَالَى:{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ 1 وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}[الْقَمَر]و لهذا قال:-

(مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم)ما من شيء ينزل من القرآن(مُّحۡدَثٍ)يتلى عليهم مجدِّدًا لهم التذكير
يذكرهم ما ينفعهم و يحثهم عليه و ما يضرهم و يرهبهم منه

(إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ)سماعا تقوم عليهم به الحجة
*البخارى 7363 – عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

قَالَ:كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَ كِتَابُكُمُ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَحْدَثُ تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا(صرفا خالصا ليس فيه تغيير ولا تبديل ولا تحريف)لَمْ يُشَبْ(لم يخلط بغيره من الأباطيل و الأضاليل)وَ قَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَ غَيَّرُوهُ وَ كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ وَ قَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لاَ وَ اللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ "

إلا كان سماعهم له سماع(وَهُمْ يَلْعَبُونَ)و يَسْتَهْزِئُونَ

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ)غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية و أبدانهم لاعبة قد اشتغلوا بتناول الشهوات و العمل بالباطل و الأقوال الردية مع أن الذى ينبغى لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة تقبل قلوبهم على أمر الله و نهيه و تستمعه استماعا تفقه المراد منه و تسعى جوارحهم فى عبادة ربهم التى خلقوا لأجلها و يجعلون القيامة و الحساب و الجزاء منهم على بال فبذلك يتم لهم أمرهم و تستقيم أحوالهم و تزكوا أعمالهم و فى معنى قوله:

(ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)قولان:ـ

أحدهما:ـ

أن هذه الأمة هى آخر الأمم و رسولها آخر الرسل و على أمته تقوم الساعة فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم لقوله ﷺ« بعثت أنا و الساعة كهاتين »و قرن بين إصبعيه السبابة و التى تليها.

و القول الثانى:ـ

أن المراد بقرب الحساب الموت و أن من مات قامت قيامته و دخل فى دار الجزاء على الأعمال
و أن هذا تعجب من كل غافل معرض لا يدرى متى يفجأه الموت صباحا أو مساء
فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية فاستعد للموت و ما بعده.

(وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

هو إشاعة ما يصدُّون به الناس عن الإيمان بمحمد ﷺمن أنه بشر مثلهم لا يختلف عنهم فى شىء
*ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد و مقابلة الحق بالباطل و أنهم تناجوا و تواطأوا فيما بينهم أن يقولوا فى الرسول ﷺإنه بشر مثلكم فما الذى فضله عليكمو خصه من بينكم
فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه لكان قوله من جنس قوله
و لكنه يريد أن يتفضل عليكم و يرأس فيكم فلا تطيعوه و لا تصدقوه و أنه ساحر و ما جاء به من القرآن سحر فانفروا عنه و نفروا الناس و قولوا:ـ

(أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ)و أن ما جاء به من القرآن سحر فكيف تجيئون إليه و تتبعونه

(وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)أنه بشر مثلكم؟

هذا و هم يعلمون أنه رسول الله حقا بما شاهدوا من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم
و لكن حملهم على ذلك الشقاء و الظلم و العناد و الله تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به و سيجازيهم عليه
*و لهذا قال:-(قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ)الخفى و الجلى(فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)فى جميع ما احتوت عليه أقطارهما
(وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ)لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات
(ٱلۡعَلِيمُ)بما فى الضمائر و أكنته السرائر.
*يذكر تعالى ائتفاك المكذبين بمحمد ﷺو بما جاء به من القرآن العظيم و أنهم سفهوه و قالوا فيه الأقاويل
الباطلة المختلفة (بَلۡ قَالُوٓاْ)فتارة يقولون:-(أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ)بمنزلة كلام النائم الهاذى الذى لا يحس بما يقول
و تارة يقولون:-(بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ)و اختلقه و تقوله من عند نفسه
(بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ)و تارة يقولون:-إنه شاعر و ما جاء به شعر.
و كل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول و نظر فى هذا الذى جاء به جزم جزما لا يقبل الشك
أنه أجل الكلام و أعلاه و أنه من عند الله و أن أحدا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه
كما تحدى الله أعداءه بذلك ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته و عداوته فلم يقدروا على شيء من معارضته
و هم يعلمون ذلك و إلا فما الذى أقامهم و أقعدهم
و أقض مضاجعهم و بلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء
و إنما يقولون هذه الأقوال فيه-حيث لم يؤمنوا به-تنفيرا عنه لمن لم يعرفه
و هو أكبر الآيات المستمرة الدالة على صحة ما جاء به الرسولﷺو صدقه و هو كاف شاف
فمن طلب دليلا غيره أو اقترح آية من الآيات سواه
فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم
و ليس لهم فيها مصلحة لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله فقد تبين دليله بدونها
و إن كان قصدهم التعجيز و إقامة العذر لأنفسهم
إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة-على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات-لا يؤمنون قطعا
فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم. و لهذا قال الله عنهم:-
(فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ)بمعجزة محسوسة
(كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ)أى:كناقة صالح و عصا موسى و نحو ذلك۝ قال الله:-
(مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ)أى: بهذه الآيات المقترحة
و إنما سنته تقتضى أن من طلبها ثم حصلت له فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة.

فالأولون ما آمنوا بها أفيؤمن هؤلاء بها؟

ما الذى فضلهم على أولئك و ما الخير الذى فيهم يقتضى الإيمان عند وجودها؟

و هذا الاستفهام بمعنى النفي أى:-لا يكون ذلك منهم أبدا(أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ٦)

(وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ)

هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين:-هلا كان ملكا لا يحتاج إلى طعام و شراب و تصرف فى الأسواق و هلا كان خالدا؟

فإذا لم يكن كذلك دل على أنه ليس برسول.

و هذه الشبه ما زالت فى قلوب المكذبين للرسل تشابهوا فى الكفر فتشابهت أقوالهم فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول المقرين بإثبات الرسل قبله –

و لو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف و المشركون يزعمون أنهم على دينه و ملته – بأن الرسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق و تطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت و غيره

*و فى هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية لا مريم و لا غيرها لقوله (إِلَّا رِجَالًا)

فإن حصل معكم شك و عدم علم بحالة الرسل المتقدمين

(فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ)من الكتب السالفة كأهل التوراة و الإنجيل يخبرونكم بما عندهم من العلم و أنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم

و هذه الآية و إن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر و هم أهل العلم فإنها عامة فى كل مسألة من مسائل الدين أصوله و فروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم و السؤال لأهل العلم و لم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم و الإجابة عما علموه

و فى تخصيص السؤال بأهل الذكر و العلم:-

نهى عن سؤال المعروف بالجهل و عدم العلم و نهى له أن يتصدى لذلك(إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٧)

(وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ)ما جعلنا أولئك المرسلين قبلك خارجين عن طباع البشر

(وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ)

*و أنه لا يكون نبى إن لم يكن ملكا مخلدا لا يأكل الطعام فقد أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله:-

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)و أن البشر لا طاقة لهم بتلقى الوحى من الملائكة

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)﴿٨﴾

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ)ثم أنجزنا للأنبياء و أتباعم ما وعدناهم به من النصر و النجاة و أن الله أرسلهم إلى قومهم و أممهم فصدقهم من صدقهم و كذبهم من كذبهم و أن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة و السعادة لهم و لأتباعهم

(وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)و أهلك المسرفين على أنفسهم المكذبين لهم و بكفرهم بربهم

فما بال محمد ﷺ تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته و هي موجودة في إخوانه المرسلين الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟

فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح و أنهم إن أقروا برسول من البشر و لن يقروا برسول من غير البشر إن شبههم باطلة قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها و تناقضهم بها فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسا ﴿٩﴾

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ)–أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب –

(كِتَابًا)جليلا و قرآنا مبينا

(فِيهِ ذِكْرُكُمْ)شرفكم و فخركم و ارتفاعكم

إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها و امتثلتم ما فيه من الأوامر و اجتنبتم ما فيه من النواهى ارتفع قدركم و عظم أمركم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)ما ينفعكم و ما يضركم؟

كيف لا ترضون و لا تعملون على ما فيه ذكركم و شرفكم فى الدنيا و الآخرة فلو كان لكم عقل لسلكتم هذا السبيل

فلما لم تسلكوه و سلكتم غيره من الطرق التى فيها ضعتكم و خستكم فى الدنيا و الآخرة و شقاوتكم فيهما علم أنه ليس لكم معقول صحيح و لا رأى رجيح. و هذه الآية مصداقها ما وقع:–

فإن المؤمنين بالرسول الذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم حصل لهم من الرفعة و العلو الباهر و الصيت العظيم و الشرف على الملوك ما هو أمر معلوم لكل أحد كما أنه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساو لم يهتد به و يتزك به من المقت و الضعة و التدسية و الشقاوة فلا سبيل إلى سعادة الدنيا و الآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}[الزُّخْرُفِ: 44] ﴿١٠﴾

وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾
فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا
خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ
إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ
ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾
أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى–محذرا لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل –

مصارع الأولين 11-15

(وَكَمۡ قَصَمۡنَا)أهلكنا بعذاب مستأصل

(مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ)تلفت عن آخرها

*هَذِهِ صِيغَةُ تَكْثِيرٍ كَمَا قَالَ {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ} [الْإِسْرَاءِ: 17] *وَ قَالَ {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}[الْحَجِّ:45]

(وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ)أُمَّةً أُخْرَى بَعْدَهُمْ﴿١١﴾

و أن هؤلاء المهلكين (فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ)بعذاب الله و عقابه و باشرهم نزوله لم يمكن لهم الرجوع و لا طريق لهم إلى النزوع

(إِذَا هُم مِّنۡهَا)من قريتهم (يَرۡكُضُونَ)يسرعون هاربين﴿١٢﴾

*و إنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندما و قلقا و تحسرا على ما فعلوا و هروبا من وقوعه فقيل لهم على وجه التهكم بهم: –

(لَا تَرۡكُضُواْ)أي:لا يفيدكم الركوض و الندم و لكن إن كان لكم اقتدار

(وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ)من اللذات و المشتهيات

(وَمَسَٰكِنِكُمۡ)المزخرفات و دنياكم التى غرتكم و ألهتكم حتى جاءكم أمر الله.

فكونوا فيها متمكنين و للذاتها جانين و فى منازلكم مطمئنين معظمين

(لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ)عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعْمَةِ_من دنياكم شيئًا و ذلك على وجه السخرية و الاستهزاء بهم

*أن تكونوا مقصودين فى أموركم كما كنتم سابقا مسئولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى و هيهات أين الوصول إلى هذا؟

و قد فات الوقت و حل بهم العقاب و المقت و ذهب عنهم عزهم و شرفهم و دنياهم و حضرهم ندمهم و تحسرهم؟﴿١٣﴾

و لهذا(قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ)هلاكنا(إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)بكفرنا﴿١٤﴾

(فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ)

أى الدعاء بالويل و الثبور و الندم و الإقرار على أنفسهم بالظلم و أن الله عادل فيما أحل بهم

(حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا)أى بمنزلة النبات الذى قد حصد و أنيم

(خَٰمِدِينَ)قد خمدت منهم الحركات و سكنت منهم الأصوات

فاحذروا–أيها المخاطبون–أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل فيحل بكم كما حل بأولئك﴿١٥﴾

(وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ)

حكمة و قدرة الله فى خلق السموات و الأرض 16-20

يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات و الأرض عبثا و لا لعبا من غير فائدة بل خلقها بالحق و للحق لـ:–

1–يستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم المدبر الحكيم الرحمن الرحيم الذى له الكمال كله و الحمد كله و العزة كلها الصادق فى قيله الصادقة رسله فيما تخبر عنه

2–و أن القادر على خلقهما مع سعتهما و عظمهما قادر على إعادة الأجساد بعد موتها ليجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته﴿١٦﴾

(لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ)على الفرض و التقدير المحال

(لَهۡوٗا)الولد أو الصاحبة_المرأة بلسان أهل اليمن_الْحُورِ الْعِينِ

*وَ هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ} [الزُّمَر:4]
فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ مُطْلَقًا لَا سِيَّمَا عَمَّا يَقُولُونَ مِنَ الْإِفْكِ وَ الْبَاطِلِ مِنَ اتِّخَاذِ عِيسَى أَوِ الْعُزَيْرِ أَوْ الْمَلَائِكَةِ

{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الْإِسْرَاء:43]

(لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ)من عندنا لا من عندكم

(إِن)ما(كُنَّا فَٰعِلِينَ)ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد أو صاحبة.

*و لم نطلعكم على ما فيه عبث و لهو لأن ذلك نقص و مثل سوء لا نحب أن نريه إياكم

فالسماوات و الأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث و اللهو

كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة و إقناعها بجميع الوجوه المقنعة فسبحان الحليم الرحيم الحكيم فى تنزيله الأشياء منازلها﴿١٧﴾

(بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ)

يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق و إبطال الباطل و إن كل باطل قيل و جودل به فإن الله ينزل من الحق و العلم و البيان ما يدمغه فيضمحل و يتبين لكل أحد بطلانه

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ)مضمحل فانٍ و هذا عام فى جميع المسائل الدينية لا يورد مبطل شبهة عقلية و لا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق إلا و فى أدلة الله من القواطع العقلية و النقلية ما يذهب ذلك القول الباطل و يقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

و هذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة فإنك تجدها كذلك ثم قال:-

(وَلَكُمُ)أيها الواصفون الله بما لا يليق به من:-اتخاذ الولد و الصاحبة و من الأنداد و الشركاء حظكم من ذلك و نصيبكم الذى تدركون به

(ٱلۡوَيۡلُ)و الندامة و الخسران.

(مِمَّا تَصِفُونَ)مِن وَصْفكم ربكم بغير صفته اللائقة به.

*ليس لكم مما قلتم فائدة و لا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها و تعملون لأجلها و تسعون فى الوصول إليها إلا عكس مقصودكم و هو الخيبة و الحرمان﴿١٨﴾

(وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)ثم أخبر أنه له ملك السماوات و الأرض و ما بينهما فالكل عبيده و مماليكه فليس لأحد منهم ملك و لا قسط من الملك و لا معاونة عليه و لا يشفع إلا بإذن الله

فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة و كيف يجعل لله منها ولد؟!

فتعالى و تقدس المالك العظيم الذى خضعت له الرقاب و ذلت له الصعاب و خشعت له الملائكة المقربون و أذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون و لهذا قال:-

(وَمَنۡ عِندَهُۥ)أى من الملائكة

(لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ)يَسْتَنْكِفُونَ(عَنۡ عِبَادَتِهِۦ)كَمَا قَالَ:-{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا}[النِّسَاءِ:172]

(وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ)يملون و لا يسأمونها لشدة رغبتهم و كمال محبتهم و قوة أبدانهم﴿١٩﴾

(يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ)مستغرقين فى العبادة و التسبيح فى جميع أوقاتهم

مُطِيعُونَ قَصْدًا وَ عَمَلًا قَادِرُونَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ:-{لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التَّحْرِيمِ:6]

فليس فى أوقاتهم وقت فارغ و لا خال منها و هم على كثرتهم بهذه الصفة

و فى هذا من بيان عظمته و جلالة سلطانه و كمال علمه و حكمته ما يوجب أن لا يعبد إلا هو و لا تصرف العبادة لغيره﴿٢٠﴾

(أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ)

لما بيَّن تعالى كمال اقتداره و عظمته و خضوع كل شيء له أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض فى غاية العجز و عدم القدرة

أدلة وحدانية الله و قدرته فى خلق السموات و الأرض 21-33

(هُمۡ يُنشِرُونَ)استفهام بمعنى النفى أى: لا يقدرون على نشرهم و حشرهم يفسرها قوله تعالى:-

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ* لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)

فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع و لا يضر و يدع الإخلاص لله الذى له الكمال كله و بيده الأمر و النفع و الضر و هذا من عدم توفيقه و سوء حظه و توفر جهله و شدة ظلمه فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد كما أنه لم يوجد إلا برب واحد﴿٢١﴾و لهذا قال:-

(لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ)أى:-فى السماوات و الأرض

(ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ)فى ذاتهما و فسد من فيهما من المخلوقات.

و بيان ذلك:-

أن العالم العلوى و السفلى على ما يرى فى أكمل ما يكون من الصلاح و الانتظام الذى ما فيه خلل و لا عيب و لا ممانعة و لا معارضة فدل ذلك على أن مدبره واحد و ربه واحد و إلهه واحد

*فلو كان له مدبران و ربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامه و تقوضت أركانه فإنهما يتمانعان و يتعارضان و إذا أراد أحدهما تدبير شيء و أراد الآخر عدمه فإنه محال وجود مرادهما معا و وجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر و عدم اقتداره و اتفاقهما على مراد واحد فى جميع الأمور غير ممكن

فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع و لا مدافع هو الله الواحد القهار و لهذا ذكر الله دليل التمانع فى قوله:-

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)[المؤمنون 91]

و منه-على أحد التأويلين- قوله تعالى:-

(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا* سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)و لهذا قال:–

(فَسُبْحَٰنَ)تنزه و تقدس(ٱللَّهِ)عن كل نقص لكماله وحده

(رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ)الذى هو سقف المخلوقات و أوسعها و أعظمها فربوبية ما دونه من باب أولى

(عَمَّا يَصِفُونَ)الجاحدون الكافرون من اتخاذ الولد و الصاحبة و أن يكون له شريك بوجه من الوجوه(٢٢)

(لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ)لعظمته و عزته و كمال قدرته لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه لا بقول و لا بفعل و لكمال حكمته و وضعه الأشياء مواضعها و إتقانها أحسن كل شيء يقدره العقل فلا يتوجه إليه سؤال لأن خلقه ليس فيه خلل و لا إخلال.

(وَهُمۡ)المخلوقون كلهم

(يُسۡـَٔلُونَ)عن أفعالهم و أقوالهم لعجزهم و فقرهم و لكونهم عبيدا قد استحقت أفعالهم و حركاتهم فليس لهم من التصرف و التدبير في أنفسهم و لا فى غيرهم مثقال ذرة. كَقَوْلِهِ:-

{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ92 عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الْحِجْر]وَ هَذَا كَقَوْلِهِ{وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}[الْمُؤْمِنُونَ:88](٢٣)

*ثم رجع إلى تهجين حال المشركين و أنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخا و مقرعا: –

(أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ)حجتكم و دليلكم على صحة ما ذهبتم إليه و لن يجدوا لذلك سبيلا بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه

و لهذا قال:–(هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ)قد اتفقت الكتب و الشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك فهذا كتاب الله الذى فيه ذكر كل شيء بأدلته العقلية و النقلية

و هذه الكتب السابقة كلها براهين و أدلة لما قلت.

*و لما علم أنهم قامت عليهم الحجة و البرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له و إلا لم يكن قطعيا و إن وجد فى معارضات فإنها شبه لا تغنى من الحق شيئا.

(بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ)أى: و إنما أقاموا على ما هم عليه تقليدا لأسلافهم يجادلون بغير علم و لا هدى و ليس عدم علمهم بالحق لخفائه و غموضه و إنما ذلك لإعراضهم عنه و إلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات لتبين لهم الحق من الباطل تبينا واضحا جليا

و لهذا قال:–(فَهُم مُّعۡرِضُونَ)(٢٤)

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

*و لما حول تعالى على ذكر المتقدمين و أمر بالرجوع إليهم فى بيان هذه المسألة بيَّنها أتم تبيين فى قوله:-

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ)

فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم و أصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له و بيان أنه الإله الحق المعبود و أن عبادة ما سواه باطلة﴿٢٥﴾

*يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول و أنهم زعموا –قبحهم الله– (وَقَالُواْ):-

(ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ)فقالوا: الملائكة بنات الله(سُبۡحَٰنَهُۥۚ)تعالى الله عن قولهم

و أخبر عن وصف الملائكة بأنهم(بَلۡ عِبَادٞ)عبيد مربوبون مُدَّبَرون ليس لهم من الأمر شيء و إنما هم:-

(مُّكۡرَمُونَ)عند الله قد أكرمهم الله و صيرهم من عبيد كرامته و رحمته

و ذلك لما خصهم به من الفضائل و التطهير عن الرذائل و أنهم فى غاية الأدب مع الله و الامتثال لأوامره﴿٢٦﴾

فـــــ(لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ)

أى: لا يقولون قولا مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله لكمال أدبهم و علمهم بكمال حكمته و علمه.

(وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ)أى: مهما أمرهم امتثلوا لأمره و مهما دبرهم عليه فعلوه فلا يعصونه طرفة عين

و لا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله و مع هذا فالله قد أحاط بهم علمه﴿٢٧﴾

فـــــ(يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ)أى:–أمورهم الماضية

(وَمَا خَلۡفَهُمۡ)أى:–أمورهم المستقبلة فلا خروج لهم عن علمه كما لا خروج لهم عن أمره و تدبيره.

و من جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول أنهم (وَلَا يَشۡفَعُونَ)لأحد(إِلَّا)بإذنه و (لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ)ـــاه الله

فإذا أذن لهم و ارتضى من يشفعون فيه شفعوا فيه و لكنه تعالى لا يرضى من القول و العمل

إلا ما كان خالصا لوجهه متبعا فيه الرسول و هذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة و أن الملائكة يشفعون.

(وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ)خائفون وجلون قد خضعوا لجلاله و عنت وجوههم لعزه و جماله.

فلما بين أنه لا حق لهم فى الألوهية و لا يستحقون شيئا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية

لذلك ذكر أيضا أنه لا حظ لهم ولا بمجرد الدعوى﴿٢٨﴾

(وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ)و أن من قال منهم(إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ)على سبيل الفرض و التنزل

(فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ)و أى ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من

جميع الوجوه مشاركة الله فى خصائص الإلهية و الربوبية؟ كقوله(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)[الزخرف: 81]

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الزمر: 65]﴿٢٩﴾

(أَوَلَمۡ يَرَ)ينظر(ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ)أى:–هؤلاء الذين كفروا بربهم و جحدوا الإخلاص له فى العبودية ما يدلهم دلالة

مشاهدة على أنه الرب المحمود الكريم المعبود فيشاهدون بـــ(أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ)

(كَانَتَا رَتۡقٗا)فيجدونهما رتقا هذه ليس فيها سحاب و لا مطر و هذه هامدة ميتة لا نبات فيها

(فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ)السماء بالمطر و الأرض بالنبات

أليس الذى أوجد فى السماء السحاب بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه و أودع فيه الماء الغزير ثم ساقه إلى

بلد ميت قد اغبرت أرجاؤه و قحط عنه ماؤه فأمطره فيها فاهتزت و تحركت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج

مختلف الأنواع متعدد المنافع

أليس ذلك دليلا على أنه الحق و ما سواه باطل و أنه محيي الموتى و أنه الرحمن الرحيم؟

(وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ)و لهذا قال:–

(أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ)أى: إيمانا صحيحا ما فيه شك و لا شرك﴿٣٠﴾

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال:–

(وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ)أى: و من الأدلة على قدرته و كماله و وحدانيته و رحمته أنه لما كانت الأرض لا

تستقر إلا بالجبال أرساها بها و أوتدها

(أَن)لئلا(بِهِمۡ تَمِيدَ)تضطرب بالعباد فلا يتمكن العباد من السكون فيها و لا حرثها و لا الاستقرار بها

فأرساها بالجبال فحصل بسبب ذلك من المصالح و المنافع ما حصل

و لما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض قد تتصل اتصالا كثيرا جدا فلو بقيت بحالها جبالا شامخات

و قللا باذخات لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

(وَجَعَلۡنَا)فمن حكمة الله و رحمته أن جعل بين تلك الجبال

(فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا)طرقا سهلة لا حزنة

*ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَ هَذِهِ الْبِلَادِ فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فَجْوَةً -ثَغْرَةً-لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا وَ لِهَذَا قَالَ:-

(لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ)

إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان و لعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان﴿٣١﴾

(وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا)للأرض التى أنتم عليها_و ه ى كالقبة عليها

(مَّحۡفُوظٗاۖ)من السقوط_عليا محروسا أن ينال(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

محفوظا أيضا من استراق الشياطين للسمع(وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ)غافلون لاهون ﴿٣٢﴾

(وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ)

هَذَا فِي ظَلَامِهِ وَ سُكُونِهِ وَ هَذَا بِضِيَائِهِ وَ أُنْسِهِ يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى وَ عَكْسُهُ الْآخَرُ.

(وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ)

هَذِهِ لَهَا نُورٌ يَخُصُّهَا وَ فَلَكٌ بِذَاتِهِ وَ زَمَانٌ عَلَى حِدَةٍ وَ حَرَكَةٍ وَسَيْرٍ خَاصٍّ وَ هَذَا بِنُورٍ خَاصٍّ آخَرَ وَ فَلَكٍ آخَرَ وَ سَيْرٍ آخَرَ وَ تَقْدِيرٍ آخَرَ

(كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ)كقوله:-{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:40] أَيْ: يَدُورُونَ.

*و هذا عام فى جميع آيات السماء من علوها و سعتها و عظمتها و لونها الحسن و إتقانها العجيب

و غير ذلك من المشاهد فيها من الكواكب الثوابت و السيارات و شمسها و قمرها النيرات المتولد عنهما الليل

والنهار و كونهما دائما في فلكهما سابحين و كذلك النجوم فتقوم بسبب ذلك:-

1- منافع العباد من الحر و البرد و الفصول 2-و يعرفون حساب عباداتهم و معاملاتهم

3-و يستريحون ليلهم 4-و يهدأون و يسكنون و ينتشرون فى نهارهم و يسعون في معايشهم

*كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب و أمعن فيها النظر جزم حزما لا شك فيه أن الله جعلها مؤقتة فى وقت معلوم

إلى أجل محتوم يقضى العباد منها مآربهم و تقوم بها منافعهم

و ليستمتعوا وينتفعوا ثم بعد هذا ستزول و تضمحل و يفنيها الذى أوجدها و يسكنها الذى حركها و ينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملا موفرا و يعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار و أنها منزل سفر لا محل إقامة.

*كَقَوْلِهِ:{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[يُوسُف:105]

أَيْ:لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الِاتِّسَاعِ الْعَظِيمِ وَ الِارْتِفَاعِ الْبَاهِرِ وَ مَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَ السَّيَّارَاتِ فِي لَيْلِهَا وَ فِي نَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفَلَكَ بِكَمَالِهِ فِي يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا الَّذِى قَدَّرَهَا وَ سَخَّرَهَا وَ سَيَّرَهَا﴿٣٣﴾

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ)لما كان أعداء الرسول يقولون تربصوا به ريب المنون. قال الله تعالى:-

هذا طريق مسلوك و معبد منهوك فلم نجعل لبشر

بعض مواقف المشركين مع الرسول و تهديدهم 34-47

(مِّن قَبْلِكَ)يا محمد(ٱلْخُلْدَ)فى الدنيا فإذا مت فسبيل أمثالك من الرسل و الأنبياء و الأولياء و غيرهم.

(أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ)

أى:-فهل إذا مت خلدوا بعدك فليهنهم الخلود إذًا إن كان و ليس الأمر كذلك بل كل من عليها فان﴿٣٤﴾

و لهذا قال:-(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ)

و هذا يشمل سائر نفوس الخلائق و إن هذا كأس لا بد من شربه و إن طال بالعبد المدى و عَمَّر سنين

و لكن الله تعالى أوجد عباده فى الدنيا و أمرهم و نهاهم (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً)

و ابتلاهم بالخير و الشر بالغنى و الفقر و العز و الذل و الحياة و الموت فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملا و من يفتتن عند مواقع الفتن و من ينجو

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)فنجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير و إن شرا فشر(وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ)

و هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر و أنه مخلد فى الدنيا فهو قول لا دليل عليه و مناقض للأدلة الشرعية﴿٣٥﴾

الاعجاز فى (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)الرابط

تفسير فلكي لآية بدء الكون

اختلف علماء الفلك قديمًا على نشأة الكون و هل للكون بداية؟
و إذا كان للكون بداية كيف و متى حصلت؟ مَن أنشأ هذه البداية؟
حتى أتى علم الفلك الحديث و حسم هذه المسألة و قدم الدليل المادى لنشأة الكون
و أجاب على كيف و متى.نحن المسلمين نؤمن أن الخالق هو خالق كل شيء و الوكيل عليه.
و قد أخبرنا القرآن كيف بدأ الكون في آية واحدة. و تتضح عظمة و إعجاز الآية الكريمة:
(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ) الأنبياء 30
في كونها أتت قبل أكثر من 1400 سنة بينما لم يتوصل العلم إلى هذه الحقائق

(عدد و تسلسل صحة و دقة Accuracies المعلومات التي احتوتها)إلا قبل أقل من 100 سنة.
الرتق ضد الفتق فَارْتَتَقَ أي الْتَأَمَ و الرتق بمعنى الضم والالتحام.
وقد أورد القرطبي في تفسير قوله تعالى:-
(كانتا) لأنهما صنفان ولأنه يعبر عن السماوات بلفظ الواحد بسماء و لأن السماوات كانت سماء واحدة.
و في تفسير (رتقا) قال ابن عباس و الحسن و عطاء و الضحاك و قتادة:
(يعني أنهما كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله بينهما).
يقول ابن كثير في تفسير (كانتا رتقا):-
أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقًا متراكمًا فوق بعض في ابتداء الأمر
لننظر الآن إلى عدد الحقائق في الآية 30 من سورة الأنبياء التي تخبرنا كيف بدأ الكون:
1ـ قال الله:-(أَوَلَمْ):-استفهام إنكاري يتضح مدى بلاغته في السياق حين لم يؤمنوا بعد أن علموا.
2ـ قال الله:-(يَرَ)بمعنى يعلم.و الحقيقة هي أن اكتشاف بداية هذا الكون تطلب علمًا و ليس إيمانًا.
3ـ قال الله:-(الَّذِينَ)أي جمع والحقيقة هي أن من اكتشف كيف و متى بدأ الكون هم عدة أشخاص.
4ـ قال الله:-(كَفَرُوٓا)أي غير مسلمين.و الحقيقة هي أن غير المسلمين هم الذين اكتشفوا كيف و متى بدأ الكون.
5ـ قال الله(السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض)معًا أي الكون كله.و الحقيقة هي أن الكون كله كان رتقًا أي كتلة واحدة.
6ـ قال الله (السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)أن الله قدم السماوات على الأرض.
و الحقيقة هي أن خلق السماوات أي الفضاء يجب أن يسبق خلق الطاقة والمادة أو يصاحبه
و من المستحيل أن يكون العكس.
و يقصد بالسماوات المكان أو الفضاءspace الذي يحتوي على كل الأجرام السماوية.
أما الأرض فهي رمز للمادة التي تكونت منها المجرات و السدم و كل الأجرام السماوية الأخرى بما فيها الأرض.
هذه المادة إما أن تكون مرئية :-
(و التي تعرف علميًّا بـ baryonic matter و تشكل 4% من مجموع ما في الكون من مادة و طاقة)
أو غير مرئية:-
(و التي تعرف علميًّا بالمادة الداكنة dark matter و تشكل 23% من مجموع الكون و الطاقة الداكنة dark energyو تشكل 73% من مجموع الكون.
7ـ أن كلمة (رَتْقًا) أي أوصل بعضه بعضًا تقترح أن مكونات الرتق إما أن تكون من جسيم واحد Particle و لكنه متفرق فرتق أو أكثر من جسيم واحد ثم رتقوا. بعبارة أخرى:-
أن الجميع كان متصلاً بعضه ببعض متلاصقًا متراكمًا فوق بعض في ابتداء الأمر.
و الحقيقة هي أن كل ما في الكون كان متلاصقًا في
(مادة غير معروفة لدى البشر حتى الآن أي لم يكن هناك فضاء ولا طاقة ولا مادة ولا زمن كما نعرفها الآن.
8 ـ حينما وصف الله ـ سبحانه ـ السماوات بالرتق فهذا يعني أن السماوات ـ أي الفضاء ـ أيضًا مادة.
و الحقيقة هي أن العلم الحديث توصل إلى أن الفضاء مادة ويحتوي الأجرام السماوية ويجبرها كيف تسبح و هو ما عبر عنه الفيزيائي البروفيسور جان أركيبالد ويلار بقوله ,Space time grips mass :
(to move, and mass grips space-time, telling it how to curve. telling it how)

9 ـ حيث لم يكن هناك زمان و لا سماوات أى فضاء يحتوى مادة الرتق فإن مادة الرتق صغيرة جدٌّا لا يمكن تخيل حجمها (أى ه ى المنتهى للمكان و للزمان) هو ما يعرف في علم الفلك بالتفردية.singularity
10ـ هناك حقبتان زمنيتان حتى الآن في خلق الكون:-حقبة ما قبل الرتق وحقبة الرتق
فلكى يكون هناك رتق فلابد من وجود كتلة/كتل تسبق الرتق.
11 ـ قال الله(فَفَتَقْنَاهُمَا)أى أن بدء الكون كان فتقًا و أن فتق الشيء يتضمن القوة والشدة في الفصل.
و الحقيقة أن هذا هو ما حصل بالفعل أثناء و خلال الانفجار الكبيرthe Big Bang
و هذه حقبة زمنية ثالثة.
12 ـ أن الفاء فى (فَفَتَقْنَاهُمَا) تتضمن التوالي المباشر بعد الرتق.
و الحقيقة ه ى أن البشرية لم تتوصل ماديًّا بعد إلى هذه النتيجة وإن كان هناك بعض التخمينات لبعض علماء الفلك أن هذا قد يكـــون حصل أو سوف يحصل و سموه الالتئام الكبير .the Big Bang
13 ـ لقد أخبرتنا الآية بما آلت إليه مادة الرتق ولكن الآية لم تخبرنا عن ماهية مادة الرتق ذاتها
و كيفية ذلك الرتق و الحقيقة أنه من المستحيل للبشرية معرفة مكونات الرتق
لأن الفتق دمر تلك (المادة) و الكيفية التى كانت فيها تدميراً في الانفجار الكبير.
14ـ أن الماء أساس الحياة فحيث توجد حياة يوجد ماء أى أن الماء يسبق وجود أي حياة
و هاتان حقيقتان زمنيتان ثابتتان و قد تكون حقبة وجود الماء حقبة زمنية رابعة و حقبة وجود حياة حقبة زمنية خامسة.
15 ـ أن تضمين (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) فى نفس الآية و ترتيبها بعد ذكر الفتق تشير إلى :-
أن هذا الكون مقدر له وجود ماء فيه ثم حياة ثم ظهور الجنس البشرى أى أن الكون هُيِّئَ لكى يستقبل البشر و هو ما يعرف فى علم الفلك بالمبدأ الإنسان الكونى .(the anthropic Cosmological principle)
و ظهور الجنس البشرى فى الكون قد يكون الحقبة الزمنية السادسة.
16ـ بعد أن أخبر الله ـ سبحانه ـ أن غير مسلمين هم الذين سوف يكتشفون كيفية و زمن بدء الكون يوبخ الحق ـ سبحانه و تعالى ـ الكافرين الذين اكتشفوا ذلك بعد الإيمان فقال:-(أَفَلا يُؤْمِنُونَ)
و كأن الحق قد استنكر عليهم علمهم ببدء الكون.
و الحقيقة ه ى أن الأشخاص الذين اكتشفوا علميًّا كيفية بدء الكون لم يؤمنوا بالإسلام وبعضهم حتى لم ولا يؤمن بالله ـ عز وجل.أخيراً :-
إن الست الحقب الزمنية المذكورة سابقًا قد تفسر قول الله(الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ)
[الفرقان 59]و الله أعلم.
إن عدد الحقائق و تسلسلها المذكورة سابقًا و بهذا التسلسل وبهذه الدقة لم يتوصل إليها البشر قط إلا خلال المئة السنة الماضية.
فكيف عرف كل هذه الحقائق إنسان أُمِّىٌّ من قوم أُميّين ظهر قبل أكثر من 1400 سنة؟
لا بد أن يكون علمًا خارج الإطار البشرى. و صدق الحق الخالق القائل فى محكم تنزيله :-
(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ* وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدحين)

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

(وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا)

و هذا من شدة كفرهم فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ استهزأوا به و قالوا:-

(أَهَٰذَا ٱلَّذِى)أى:-المحتقر بزعمهم(يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ)الذى يسب آلهتكم و يذمها و يقع فيها أى:-

فلا تبالوا به و لا تحتفلوا به.

هذا استهزاؤهم و احتقارهم له بما هو من كماله فإنه الأكمل الأفضل الذى من فضائله و مكارمه إخلاص العبادة لله و ذم كل ما يعبد من دونه و تنقصه و ذكر محله و مكانته

و لكن محل الازدراء و الاستهزاء هؤلاء الكفار الذين جمعوا كل خلق ذميم و لو لم يكن إلا كفرهم بالرب و جحدهم لرسله

فصاروا بذلك من أخس الخلق و أرذلهم و مع هذا فذكرهم للرحمن الذى هو أعلى حالاتهم كافرون بها لأنهم لا يذكرونه و لا يؤمنون به إلا و هم مشركون فذكرهم كفر و شرك فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟و لهذا قال:

(وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ)ذكر اسمه(ٱلرَّحْمَٰنِ)هنا بيان لقباحة حالهم و أنهم كيف قابلوا الرحمن-مسدى النعم كلها و دافع النقم الذى ما بالعباد من نعمة إلا منه و لا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر و الشرك.

(هُمْ كَٰفِرُونَ)جاحدون بالرحمن و نعمه و بما أنزله من القرآن و الهدى﴿٣٦﴾

(خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ)أى:خلق عجولا يبادر الأشياء و يستعجل بوقوعها

فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين و يتباطئونها و الكافرون يتولون و يستعجلون بالعذاب تكذيبا و عنادا

*وَ الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ عِجلَةِ الْإِنْسَانِ هَاهُنَا أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَقَعَ فِي النُّفُوسِ سُرْعَةُ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ وَ اسْتُعْجِلَتْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} لِأَنَّهُ تَعَالَى يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ يُؤَجِّلُ ثُمَّ يُعَجِّلُ وَ يُنْظِرُ ثُمَّ لَا يُؤَخِّرُ

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ٣٧

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)يا محمد إن كنت أنت و مَن اتبعك من الصادقين؟

و الله تعالى يمهل و لا يهمل و يحلم و يجعل لهم أجلا مؤقتا(إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

و لهذا قال: (سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي)فى انتقامى ممن كفر بى و عصانى

(فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)ذلك و كذلك الذين كفروا (وَيَقُولُونَ):-

(مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)قالوا هذا القول اغترارا و لما يحق عليهم العقاب وينزل بهم العذاب ٣٨

فـــــ(لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)حالهم الشنيعة مما يلاقونه

(حِينَ لَا يَكُفُّونَ)يدفعون(عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ)

إذ قد أحاط بهم من كل جانب و غشيهم من كل مكان {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [الزُّمَر:16]

{لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ}[الْأَعْرَاف:41] وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:{حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ}

وَ قَالَ:{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ}[إِبْرَاهِيمَ:50] فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ

(وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)لا ينصرهم غيرهم فلا نُصِروا و لا انتصروا كَمَا قَالَ:-{وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}[الرَّعْد:34] ٣٩

(بَلْ تَأْتِيهِم)النار(بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ)من الانزعاج و الذعر و الخوف العظيم.

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا)إذ هم أذل و أضعف من ذلك_و لا يستطيعون دَفْعَ العذاب عن أنفسهم

(وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)يمهلون فيؤخر عنهم العذاب.

فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة لما استعجلوا بالعذاب و لخافوه أشد الخوف ٤٠

و لكن لما ترحل عنهم هذا العلم قالوا ما قالوا و لما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم:-(أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ

سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال:-

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ)نزل و حلَّ(بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم)

(مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)أى:-بالعذاب الذى كان مَثار سخريتهم و استهزائهم و تقطعت عنهم الأسباب

فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين ٤١

*يقول تعالى-ذاكرا عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة و أنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن الذى رحمته شملت البر و الفاجر فى ليلهم و نهارهم-فقال:-

(قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم)يحرسكم و يحفظكم

(بِٱلَّيۡلِ)إذ كنتم نائمين على فرشكم و ذهبت حواسكم

(وَٱلنَّهَارِ)وقت انتشاركم و غفلتكم(مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ)أى:–بدله غيره أى:–هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

(بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ)أى:-عن القرآن و مواعظ(رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ)لاهون غافلون.

*فلهذا أشركوا به و إلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم و تلقوا نصائحه لهدوا لرشدهم و وفقوا فى أمرهم﴿٤٢﴾

(أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا)

أى:–إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء و الشر النازل بهم؟؟

*اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَ تَقْرِيعٍ وَ تَوْبِيخٍ أَيْ:-أَلَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَ تَكْلَؤُهُمْ غَيْرُنَا؟

لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا وَ لَا كَمَا زَعَمُوا وَ لِهَذَا قَالَ:-

(لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ)هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي اسْتَنَدُوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ.

*أى:لا يعانون على أمورهم من جهتنا و إذا لم يعانوا من الله فهم مخذولون فى أمورهم لا يستطيعون جلب منفعة

و لا دفع مضرة.

(وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ)يُجَارُونَ_يمنعون_لَا يُصْحَبُونَ مِنَ اللَّهِ بِخَيْرٍ﴿٤٣﴾

*و الذى أوجب لهم استمرارهم على كفرهم و شركهم قوله:–(بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ)

أى: أمددناهم بالأموال و البنين و أطلنا أعمارهم فاشتغلوا بالتمتع بها و لهوا بها عما له خلقوا

(حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ)الأمد فقست قلوبهم و عظم طغيانهم و تغلظ كفرانهم

فلو لفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم و عن يسارهم من الأرض لم يجدوا إلا هالكا و لم يسمعوا إلا صوت ناعية

و لم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك و قد نصب الموت فى كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك

و لهذا قال:–

(أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ)

أي: بموت أهلها و فنائهم شيئا فشيئا حتى يرث الله الأرض و من عليها و هو خير الوارثين

فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا و يستمروا على ما هم عليه.

*اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ وَ قَدْ أَسْلَفْنَاهُ فِي سُورَةِ "الرَّعْدِ" وَ أَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:-

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الْأَحْقَافِ:27] .

وَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ ظُهُورَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ.

وَ الْمَعْنَى:أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ وَ إِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ وَ الْقُرَى الظَّالِمَةَ

وَ إِنْجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)بَلْ هُمْ الْمَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْذَلُونَ.

*الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ و بطاقتهم الامتناع عن الموت؟

فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟

أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم أذعنوا و ذلوا و لم يظهر منهم أدنى ممانعة؟(٤٤)

. . . .

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ
أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

(قُلْ)يا محمد للناس كلهم:—(إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ)

أى: إنما أنا رسول لا آتيكم بشيء من عندى و لا عندى خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول إنى ملك
و إنما أنذركم بما أوحاه الله إلى فإن استجبتم فقد استجبتم لله و سيثيبكم على ذلك
و إن أعرضتم و عارضتم فليس بيدى من الأمر شيء و إنما الأمر لله و التقدير كله لله.

(وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ)

أى:الأصم لا يسمع صوتا لأن سمعه قد فسد و تعطل و شرط السماع مع الصوت أن يوجد محل قابل لذلك
كذلك الوحى سبب لحياة القلوب و الأرواح و للفقه عن الله
و لكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى كان بالنسبة للهدى و الإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات
فهؤلاء المشركون صم عن الهدى فلا يستغرب عدم اهتدائهم خصوصا فى هذه الحالة التى لم يأتهم العذاب
و لا مسهم ألمه(إِذَا مَا يُنذَرُونَ)﴿٤٥﴾

(وَلَئِن)فلو (مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ)أى:و لو جزءا يسيرا و لا يسير(مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ)

(لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ)أى:لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل و الثبور و الندم

(إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)و الاعتراف بظلمهم و كفرهم و استحقاقهم للعذاب﴿٤٦﴾

(وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ)

يخبر تعالى عن حكمه العدل و قضائه القسط بين عباده إذا جمعهم فى يوم القيامة

و أنه يضع لهم الموازين العادلة التى يبين فيها مثاقيل الذر الذى توزن بها الحسنات و السيئات

(فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ)مسلمة أو كافرة(شَيۡـٔٗاۖ)بأن تنقص من حسناتها أو يزاد فى سيئاتها.

(وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ)التى هى أصغر الأشياء و أحقرها من خير أو شر

(أَتَيۡنَا بِهَاۗ)أحضرناها ليجازى بها صاحبها كقوله:-(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(وقالوا يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا)

(وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ)يعنى بذلك نفسه الكريمة فكفى به حاسبا أى:-

عالما بأعمال العباد حافظا لها مثبتا لها فى الكتاب عالما بمقاديرها و مقادير ثوابها و عقابها و استحقاقها

موصلا للعمال جزاءها ﴿٤٧﴾

موسى و هارون 48-50

(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)

كثيرا ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما و لا أعظم ذكرا و لا أبرك

و لا أعظم هدى و بيانا و هما التوراة و القرآن فأخبر أنه آتى موسى أصلا و هارون تبعا

(ٱلۡفُرۡقَانَ)و هى التوراة الفارقة بين الحق و الباطل و الهدى و الضلال

و أنها(وَضِيَآءٗ)نور يهتدى به المهتدون و يأتم به السالكون و تعرف به الأحكام و يميز به بين الحلال

و الحرام و ينير فى ظلمة الجهل و البدع و الغواية

(وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ)يتذكرون به ما ينفعهم و ما يضرهم و يتذكر به الخير و الشر

و خص(المتقين)بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك علما و عملا﴿٤٨﴾ثم فسر المتقين فقال:-

(ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ)أى: يخشونه فى حال غيبتهم و عدم مشاهدة الناس لهم

فمع المشاهدة أولى فيتورعون عما حرم و يقومون بما ألزم

(وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ)خائفون وجلون لكمال معرفتهم بربهم

فجمعوا بين الإحسان و الخوف و العطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة على شيء واحد

و موصوف واحد﴿٤٩﴾

(وَهَٰذَا)أى:-القرآن(ذِكۡرٞ)فوصفه بوصفين جليلين كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب:-

1-من معرفة الله بأسمائه و صفاته و أفعاله

2-و من صفات الرسل و الأولياء و أحوالهم

3-و من أحكام الشرع من العبادات و المعاملات و غيرها

4-و من أحكام الجزاء و الجنة و النار

5-فيتذكر به المسائل و الدلائل العقلية و النقلية و سماه ذكرا لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول و الفطر من:-

1-التصديق بالأخبار الصادقة

2-و الأمر بالحسن عقلا

3-و النهي عن القبيح عقلا و كونه

(مُبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ)يقتضي كثرة خيراته و نمائها و زيادتها و لا شيء أعظم بركة من هذا القرآن

فإن كل خير و نعمة و زيادة دينية أو دنيوية أو أخروية فإنها بسببه و أثر عن العمل به

فإذا كان ذكرا مباركا وجب تلقيه بالقبول و الانقياد و التسليم و شكر الله على هذه المنحة الجليلة و القيام بها

و استخراج بركته بتعلم ألفاظه و معانيه

و أما مقابلته بضد هذه الحالة من:-

الإعراض عنه و الإضراب عنه صفحا و إنكاره و عدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر و أشد الجهل و الظلم

و لهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال:-

ابراهيم مع قومه و هبة الله له 51-73

(أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ)﴿٥٠﴾

*لما ذكر تعالى موسى و محمدا ﷺ و كتابيهما قال:-

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ)

أي:من قبل إرسال موسى و محمد و نزول كتابيهما فأراه الله ملكوت السماوات و الأرض و أعطاه من الرشد الذي كمل به نفسه و دعا الناس إليه ما لم يؤته أحدا من العالمين غير محمد و أضاف الرشد إليه لكونه رشدا بحسب حاله و علو مرتبته و إلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.

*كقوله{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[الأنعام: 83]

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)

(وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ)أي: أعطيناه رشده و اختصصناه بالرسالة و الخلة و اصطفيناه فى الدنيا و الآخرة لعلمنا أنه أهل لذلك و كفء له لزكائه و ذكائه﴿٥١﴾

و لهذا ذكر محاجته لقومه و نهيهم عن الشرك و تكسير الأصنام و إلزامهم بالحجة فقال:-

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ)

*هذا هو الرشد الذى أُوتِيه من صغره:-الإنكار على قومه فى عبادة الاصنام التى مثلتموها و نحتموها بأيديكم على صور بعض المخلوقات

(ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ)مقيمون على عبادتها ملازمون لذلك فما هى؟و أى فضيلة ثبتت لها؟

و أين عقولكم التى ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟

و الحال أنكم مثلتموها و نحتموها بأيديكم فهذا من أكبر العجائب تعبدون ما تنحتون﴿٥٢﴾

فأجابوا بغير حجة جواب العاجز الذى ليس بيده أدنى شبهة فـــ(قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ)

كذلك يفعلون فسلكنا سبيلهم و تبعناهم على عبادتها

و من المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة و لا تجوز به القدوة خصوصا فى أصل الدين

و توحيد رب العالمين﴿٥٣﴾

و لهذا (قَالَ)لهم إبراهيم مضللا للجميع:-(لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ)

أى ضلال بين واضح و أى ضلال أبلغ من ضلالهم فى الشرك و ترك التوحيد؟!!

أى:-فليس ما قلتم يصلح للتمسك به و قد اشتركتم و إياهم فى الضلال الواضح البين لكل أحد﴿٥٤﴾

(قَالُوٓاْ)على وجه الاستغراب لقوله و الاستعظام لما قال و كيف بادأهم بتسفيههم و تسفيه آبائهم:-

(أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ)

أي: هذا القول الذى قلته و الذى جئتنا به هل هو حق و جد؟

أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ لا يدرى ما يقول؟

و هذا الذى أرادوا و إنما رددوا الكلام بين الأمرين لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد أن الكلام

الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول﴿٥٥﴾

فرد عليهم إبراهيم ردا بين به وجه سفههم و قلة عقولهم فـــ(قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ)

فجمع لهم بين الدليل العقلى و الدليل السمعى.

أما الدليل العقلي:-

فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بنى آدم

و الملائكة و الجن و البهائم و السماوات و الأرض المدبر لهن بجميع أنواع التدبير

فيكون كل مخلوق مفطورا مدبرا متصرفا فيه و دخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل و تمييز أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه لا يملك نفعا و لا ضرا و لا موتا

و لا حياة و لا نشورا و يدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

أما الدليل السمعى:-

فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة و السلام فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط و لا يخبر بغير الحق

و من أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم:-

(وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم)أى:أن الله وحده المعبود و أن عبادة ما سواه باطل(مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)

و أى شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟خصوصا أولى العزم منهم خصوصا خليل الرحمن﴿٥٦﴾

و لما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شىء أراد أن يريهم بالفعل عجزها و عدم انتصارها و ليكيد كيدا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال:-

(وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ)لأكسرن(أَصْنَٰمَكُم)على وجه الكيد

(بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ)عنها إلى عيد من أعيادهم فلما تولوا مدبرين ذهب إليها بخفية﴿٥٧﴾

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) كسرا و قطعا و كانت مجموعة في بيت واحد فكسرها كلها

(إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ)إلا صنمهم الكبير كَمَا قَالَ:-{فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [الصَّافَّاتِ:93]

*فإنه تركه لمقصد سيبينه و تأمل هذا الاحتراز العجيب فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه كما كان النبى ﷺإذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول:–« إلى عظيم الفرس » « إلى عظيم الروم » و نحو ذلك و لم يقل « إلى العظيم »

و هنا قال تعالى:–(إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ)و لم يقل « كبيرا من أصنامهم »

فهذا ينبغى التنبيه له و الاحتراز من تعظيم ما حقره الله إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

(إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ الْقَدُومَ فِي يَدِ كَبِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذى غَارَ لِنَفْسِهِ وَ أَنِفَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الصِّغَارُ فَكَسَّرَهَا﴿٥٩﴾

*أى ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه و يستملوا حجته و يلتفتوا إليها و لا يعرضوا عنها

و لهذا قال فى آخرها:–(فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ)فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة و الخزى

(قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

فرموا إبراهيم بالظلم الذى هم أولى به حيث كسرها و لم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه و من عدله و توحيده و إنما الظالم من اتخذها آلهة و قد رأى ما يفعل بها﴿٦٠﴾

(قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ)يعيبهم و يذمهم

و من هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذى كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها(يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ)﴿٦١﴾

فلما تحققوا أنه إبراهيم (قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ)أى:بإبراهيم

(عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ)أى بمرأى منهم و مسمع

(لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ)أى:يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم

و هذا الذى أراد إبراهيم و قصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق و تقوم عليهم الحجة

كما قال موسى حين واعد فرعون: (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)﴿٦٢﴾

فحين حضر الناس و أحضر إبراهيم (قَالُوٓاْ)له: –

(ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا)أى:–التكسير

(بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ)؟و هذا استفهام تقرير أى:–فما الذى جرأك و ما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

﴿٦٣﴾فـــــ(قَالَ)إبراهيم و الناس شاهدون:–

(بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا)

أى:كسرها غضبا عليها لما عبدت معه و أراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده

و هذا الكلام من إبراهيم المقصد منه إلزام الخصم و إقامة الحجة عليه و لهذا قال:–

(فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ)

و أراد الأصنام المكسرة اسألوها لم كسرت؟

و الصنم الذى لم يكسر اسألوه لأى شيء كسرها إن كان عندهم نطق فسيجيبونكم إلى ذلك

و أنا و أنتم و كل أحد يدرى أنها لا تنطق و لا تتكلم و لا تنفع و لا تضر بل و لا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى.

*مسلم(2371) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:

" لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ

1-قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ 2-وَ قَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا 3-وَ وَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ ﴿٦٤﴾

(فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ)أى:ثابت عليهم عقولهم و رجعت إليهم أحلامهم و علموا أنهم ضالون في عبادتها

و أقروا على أنفسهم بالظلم و الشرك_بِالْمَلَامَةِ فِي عَدَمِ احْتِرَازِهِمْ وَ حِرَاسَتِهِمْ لِآلِهَتِهِمْ

(فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)أَيْ: فِي تَرْكِكِمْ لَهَا مُهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا

*فحصل بذلك المقصود و لزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل و أن فعلهم كفر و ظلم و لكن لم يستمروا على هذه الحالة﴿٦٥﴾

(ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ)أى: انقلب الأمر عليهم و انتكست عقولهم و ضلت أحلامهم فقالوا لإبراهيم:-

(لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ)

فكيف تهكم بنا و تستهزئ بنا و تأمرنا أن نسألها و أنت تعلم أنها لا تنطق؟﴿٦٦﴾

فقال إبراهيم–موبخا لهم و معلنا بشركهم على رءوس الأشهاد و مبينا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة–:-

(قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ)فلا نفع و لا دفع

(أُفّٖ)قبحًا(لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ)و لآلهتكم التى تعبدونها(مِن دُونِ ٱللَّهِ)

*أى: ما أضلكم و أخسر صفقتكم و ما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)إن كنتم تعقلون فتدركون سوء ما أنتم عليه عرفتم هذه الحال ؟

فلما عدمتم العقل و ارتكبتم الجهل و الضلال على بصيرة صارت البهائم أحسن حالا منكم.

فحينئذ لما أفحمهم و لم يبينوا حجة استعملوا قوتهم في معاقبته وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام:83] ﴿٦٧﴾ فـــــــــ(قَالُواْ):-

(حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ)اقتلوه أشنع القتلات بالإحراق غضبا لآلهتكم و نصرة لها(إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ)﴿٦٨﴾

فتعسا لهم تعسا حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم و اتخذوه إلها فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار

(قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ)فكانت عليه بردا و سلاما لم ينله فيها أذى و لا أحس بمكروه.

*وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:{وَسَلامًا} لَآذَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدُهَا.

*البخارى 4563–عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ«قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَ قَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ»حِينَ قَالُوا:{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ}[آل عمران173]((الناس)أبو سفيان وأصحابه من قريش قبل إسلامه(جمعوا لكم)حشدوا الرجال من كل جهة لقتالكم(حسبنا)كافينا(الوكيل)الحافظ الذى يعتمد عليه في الامور)

*ابن ماجه3231 - عَنْ نَافِعٍ عَنْ سَائِبَةَ مَوْلَاةِ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ فَرَأَتْ فِي بَيْتِهَا رُمْحًا مَوْضُوعًا فَقَالَتْ:-يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَصْنَعِينَ بِهَذَا؟

قَالَتْ: نَقْتُلُ بِهِ هَذِهِ الْأَوْزَاغَ فَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَنَا:

«أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةٌ إِلَّا أَطْفَأَتِ النَّارَ غَيْرَ الْوَزَغِ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَيْهِ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِهِ»﴿٦٩﴾

(وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا)حيث عزموا على إحراقه

(فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ)فى الدنيا و الآخرة كما جعل الله خليله و أتباعه هم الرابحين المفلحين﴿٧٠﴾

(وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا)و ذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام قيل:–إنه ابن أخيه فنجاه الله

و هاجر(إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ)أى: الشام فغادر قومه فى « بابل » من أرض العراق

(وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

و من بركة الشام أن كثيرا من الأنبياء كانوا فيها و أن الله اختارها مهاجرا لخليله و فيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة و هو بيت المقدس﴿٧١﴾

(وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ)حين اعتزل قومه(إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ)ابن إسحاق

(وَيَعۡقُوبَ)هو إسرائيل الذى كانت منه الأمة العظيمة و إسماعيل بن إبراهيم الذى كانت منه الأمة الفاضلة العربية

و من ذريته سيد الأولين و الآخرين(نَافِلَةً)عطية بعدما كبر و كانت زوجته عاقرا فبشرته الملائكة بإسحاق

*وَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: سَأَلَ وَاحِدًا فَقَالَ:{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصَّافَّاتِ:100]
فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِسْحَاقَ وَ زَادَهُ يَعْقُوبَ نَافِلَةً.(وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

(وَكُلًّا)من إبراهيم و إسحاق و يعقوب(جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ)قائمين بحقوقه و حقوق عباده

و من صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره و هذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدى به المهتدون و يمشى خلفه السالكون و ذلك لما صبروا و كانوا بآيات الله يوقنون﴿٧٢﴾

وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

(وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ)يُقْتَدَى بِهِمْ(يَهۡدُونَ)الناس(بِأَمۡرِنَا)بديننا لا يأمرون بأهواء أنفسهم بل بأمر الله و دينه و اتباع مرضاته و لا يكون العبد إماما حتى يدعو إلى أمر الله.

(وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ)يفعلونها و يدعون الناس إليها و هذا شامل لجميع الخيرات كلها من حقوق الله و حقوق العباد.

(وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ)

هذا من باب عطف الخاص على العام لشرف هاتين العبادتين و فضلهما و لأن من كملهما كما أمر كان قائما بدينه و من ضيعهما كان لما سواهما أضيع و لأن الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه و الزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه.

(وَكَانُواْ لَنَا)أي: لا لغيرنا

(عَٰبِدِينَ)مديمين منقادين مطيعين لله وحده دون سواه على العبادات القلبية و القولية و البدنية في أكثر أوقاتهم فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم فاتصفوا بما أمر الله به الخلق و خلقهم لأجله.

*ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوطٍ -وَ هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ-كَانَ قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ و اتَّبَعَهُ و هَاجَرَ مَعَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ} [الْعَنْكَبُوتِ:26]

فَآتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ أَوْحَى إِلَيْهِ وَ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَ بَعَثَهُ إِلَى سَدُومَ وَ أَعْمَالِهَا فَخَالَفُوهُ وَ كَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ و دَمَّر عَلَيْهِمْ كَمَا قَصَّ خَبَرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ﴿٧٣﴾ و لِهَذَا قَالَ:-

لوط مع قومه 74-75

(وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

هذا ثناء من الله على رسوله (لوط)ﷺبالعلم الشرعي و الحكم بين الناس بالصواب و السداد

و أن الله أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله و ينهاهم عما هم عليه من الفواحش فلبث يدعوهم فلم يستجيبوا له فقلب الله عليهم ديارهم و عذبهم عن آخرهم

لــــــ(إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ)كذبوا الداعي و توعدوه بالإخراج ﴿٧٤﴾

(وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ)

و نجى الله لوطا و أهله فأمره أن يسرى بهم ليلا ليبعدوا عن القرية فسروا و نجوا من فضل الله عليهم و منته.

(وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ)

التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف النائلين كل خير و سعادة و بر و سرور و ثناء

و ذلك لأنه من الصالحين الذين صلحت أعمالهم و زكت أحوالهم و أصلح الله فاسدهم

و الصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة و الخير و أعظم الناس صلاحا الأنبياء عليهم السلام

(إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)و لهذا يصفهم بالصلاح و قال سليمان ﷺ:-(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)﴿٧٥﴾

(و)اذكر عبدنا و رسولنا(وَنُوحًا)ﷺمثنيا مادحا حين أرسله الله إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله و ينهاهم عن الشرك به و يبدى فيهم و يعيد و يدعوهم سرا و جهارا و ليلا و نهارا

فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ و لا يفيد لديهم الزجر نادى ربه و قال:-

نوح مع قومه 76-77

(رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا)

(فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ)الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ كَمَا قَالَ(وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ)[هُود:40]

(مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ)مِنَ الشِّدَّةِ وَ التَّكْذِيبِ وَ الْأَذَى فَإِنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ وَ كَانُوا يَقْصِدُونَ لِأَذَاهُ وَ يَتَوَاصَوْنَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى خِلَافِهِ﴿٧٦﴾

(وَنَصَرْنَٰهُ)نَجَّيْنَاهُ وَ خَلَّصْنَاهُ مُنْتَصِرًا(مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ)

(إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ)

فاستجاب الله له فأغرقهم و لم يبق منهم أحدا و نجى الله نوحا و أهله و من معه من المؤمنين فى الفلك المشحون و جعل ذريته هم الباقين و نصرهم الله على قومه المستهزئين﴿٧٧﴾

(و)اذكر هذين النبيين الكريمين(وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ)مثنيا مبجلا إذ آتاهما الله العلم الواسع و الحكم بين العباد بدليل قوله:—

داود و سليمان 78-82

(إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ)أى: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث

(إِذۡ نَفَشَتۡ)عَدَت

(فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ)غنم أحدهما على زرع الآخر أى: رعت ليلا فأكلت ما فى أشجاره و رعت زرعه

*فقضى فيه داود عليه السلام:—بأن الغنم تكون لصاحب الحرث نظرا إلى تفريط أصحابها فعاقبهم بهذه العقوبة

*و حكم فيها سليمان:—بحكم موافق للصواب بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها و صوفها و يقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى فإذا عاد إلى حاله ترادا و رجع كل منهما بما له و كان هذا من كمال فهمه و فطنته عليه السلام

(وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ)لم يَغِبْ عنا﴿٧٨﴾و لهذا قال:—

(فَفَهَّمۡنَٰهَا)ففَهَّمنا(سُلَيۡمَٰنَ)هذه القضية بمراعاة مصلحة الطرفين مع العدل فحكم على صاحب الغنم بإصلاح الزرع التالف فى فترة يستفيد فيها صاحب الزرع بمنافع الغنم من لبن و صوف و نحوهما ثم تعود الغنم إلى صاحبها و الزرع إلى صاحبه لمساواة قيمة ما تلف من الزرع لمنفعة الغنم

*و لا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله فى غيرها و لهذا خصها بالذكر بدليل قوله:—

(وَكُلًّا)من داود و سليمان(ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ)فَأَثْنَى اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَ لَمْ يَذُمَّ دَاوُدَ.

*و هذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق و الصواب و قد يخطئ ذلك و ليس بمعلوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

*البخارى7352 عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-
«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَ إِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»
*وَ قَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ(8280)و كذلك فى البخارى:-
*البخارى 3427 –وَ قَالَ: كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا
فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا:-إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ وَ قَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ
فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا
فَقَالَتِ الصُّغْرَى:-لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى "
قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:-وَ اللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ وَ مَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا المُدْيَةَ

*ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال:—(وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ)

و ذلك أنه كان من أعبد الناس و أكثرهم لله ذكرا و تسبيحا و تمجيدا و كان قد أعطاه الله من حسن الصوت و رقته و رخامته ما لم يؤته أحدا من الخلق فكان إذا سبح و أثنى على الله جاوبته الجبال الصم و الطيور البهم

و هذا فضل الله عليه و إحسانه فلهذا قال:-(وَكُنَّا فَاعِلِينَ)(٧٩)

(وَعَلَّمْنَاهُ)علّمه الله(صَنْعَةَ)صناعة الدروع يعملها(لَبُوسٍ لَكُمْ)حِلَقًا متشابكة تسهّل حركة الجسم

أى:علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع فهو أول من صنعها و علمها و سرت صناعته إلى من بعده فألان الله له الحديد و علمه كيف يسردها و الفائدة فيها كبيرة

(لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)أى:-هى وقاية لكم و حفظ عند الحرب و اشتداد البأس.

(فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)نعمة الله عليكم حيث أجراها على يد عبده داود كما قال تعالى:-

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

*يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع و إلانتها أمر خارق للعادة و أن يكون-كما قاله المفسرون-:-

إن الله ألان له الحديد حتى كان يعمله كالعجين و الطين من دون إذابة له على النار

*و يحتمل أن تعليم الله له على جارى العادة و أن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها و هذا هو الظاهر لأن الله امتن بذلك على العباد و أمرهم بشكرها

و لولا أن صنعته من الأمور التى جعلها الله مقدورة للعباد لم يمتن عليهم بذلك و يذكر فائدتها لأن الدروع التى صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها و إنما المنة بالجنس و الاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله:-(وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)و ليس فيه أن الإلانة من دون سبب و الله أعلم بذلك(٨٠)

(وَلِسُلَيْمَانَ)سخر الله(الرِّيحَ عَاصِفَةً)أى: سريعة فى مرورها

(تَجْرِي بِأَمْرِهِ)حيث دبرت امتثلت أمره غدوها شهر و رواحها شهر قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-

{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} وَ قَالَ {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سَبَأٍ:12]

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)و هى أرض الشام حيث كان مقره فيذهب على الريح شرقا و غربا و يكون مأواها و رجوعها إلى الأرض المباركة

(وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)

قد أحاط علمنا بجميع الأشياء و علمنا من داود و سليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا(٨١)

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

(وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ)كَمَا قَالَ تَعَالَى{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ 4 وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ}[ص]

*و هذا أيضا من خصائص سليمان عليه السلام أن الله:-سخر له الشياطين و العفاريت و سلطه على تسخيرهم فى الأعمال التى لا يقدر على كثير منها غيرهم فكان منهم من يغوص له في البحر و يستخرج الدر و اللؤلؤ و غير ذلك و منهم من يعمل له (مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ)

و سخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس و مات و هم على عمله و بقوا بعده سنة حتى علموا موته كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

(وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ)فى صناعة ما يريده منهم

(وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ)أى:لا يقدرون على الامتناع منه و عصيانه بل حفظهم الله له بقوته و عزته و سلطانه.

*وَ لِهَذَا قَالَ:-{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ}[ص:38] ﴿٨٢﴾

أيوب 83-84

(۞و)اذكر عبدنا و رسولنا(وَأَيُّوبَ)-مثنيا معظما له رافعا لقدره-حين ابتلاه ببلاء شديد فوجده صابرا راضيا عنه و ذلك أن الشيطان سلط على جسده ابتلاء من الله و امتحانا فنفخ فى جسده فتقرح قروحا عظيمة و مكث مدة طويلة و اشتد به البلاء و مات أهله و ذهب ماله

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ عليه السلام مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَ وَلَدِهِ وَ جَسَدِهِ

وَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَ أَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ وَ مَنَازِلُ مَرْضِيَّةٌ.

فَابْتُلِى فى ذَلِكَ كُلِّهِ وَ ذَهَبَ عَنِ آخِرِهِ ثُمَّ ابْتُلِىَ فِى جَسَدِهِ-يُقَالُ:-بِالْجُذَامِ فِى سَائِرِ بَدَنِهِ وَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَ لِسَانِهِ يَذْكُرُ بِهِمَا اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ حَتَّى عَافَهُ الْجَلِيسُ و أفرد فِى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَلَدِ
وَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ
وَ لايُقَالُ: إِنَّهَا احْتَاجَتْ فَصَارَتْ تَخدِمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ وَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

*الترمذى2398 -عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟
قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ
وَ إِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِىَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشى عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»

*ابن حبان2898 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
"إِنَّ أَيُّوبَ نَبِىَّ اللَّهِ عليه السلاملَبِثَ فِى بَلاَئِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَ الْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَ يَرُوحَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ تَعْلَمُ وَ اللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العالمين قال له صاحبه و ذاك قَالَ مُنْذُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَيُّوبُ لَا أَدْرِى مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ
قَالَ وَ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فَأَوْحَى اللَّهُ إلى أيوب فِي كتابه {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَغَتْهُ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ:-أَىْ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِىَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟
وَ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا قَالَ:-
فإني أنا هو و كان له أندران(البيدر و هو الموضع الذى يداس فيه الطعام):-
أَنْدَرُ الْقَمْحِ وَ أَنْدَرُ الشَّعِيرِ فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ وَ أَفْرَغَتِ الْأُخْرَى عَلَى أندر الشعير الورق حتى فاضت"

(إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ):-رب (أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه و أنه بلغ الضر منه كل مبلغ و برحمة ربه الواسعة العامة

فاستجاب الله له و قال له:-(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

فركض برجله فخرجت من ركضته عين ماء باردة فاغتسل منها و شرب فأذهب الله عنه ما به من الأذى ﴿٨٣﴾

(فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ)رددنا عليه(أَهۡلَهُۥ)بأعيانهم و ماله

(وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ)بأن منحه الله العافية من الأهل و المال شيئا كثيرا

(رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا)به حيث صبر و رضى فأثابه الله ثوابا عاجلا قبل ثواب الآخرة.

(وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ)جعلناه عبرة للعابدين الذين ينتفعون بالعبر فإذا رأوا ما أصابه من البلاء
*لِئَلَّا يَظُنَّ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا وَ لِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ اللَّهِ وَ ابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ وَ لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ.

*ثم ما أثابه الله بعد زواله و نظروا السبب وجدوه الصبر و لهذا أثنى الله عليه به فى قوله:–

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)فجعلوه أسوة و قدوة عندما يصيبهم الضر﴿٨٤﴾

(وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ)أى:–و اذكر عبادنا المصطفين و أنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر و أثن عليهم أبلغ الثناء:–إسماعيل بن إبراهيم و إدريس و ذا الكفل نبيين من أنبياء بنى إسرائيل

اسماعيل و ادريس و ذا الكفل 85-86

(كُلٌّ)من هؤلاء المذكورين

(مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ)و الصبر:–هو حبس النفس و منعها مما تميل بطبعها إليه

و هذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة:–

1–الصبر على طاعة الله 2–و الصبر عن معصية الله 3–و الصبر على أقدار الله المؤلمة

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتى يوفى هذه الثلاثة حقها.

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة و السلام قد وصفهم الله بالصبر فدل أنهم وفوها حقها و قاموا بها كما ينبغي و وصفهم أيضا بالصلاح و هو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله و محبته و الإنابة إليه كل وقت و صلاح اللسان بأن يكون رطبا من ذكر الله و صلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله و كفها عن المعاصى.

فبصبرهم و صلاحهم﴿٨٥﴾

(وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ)أدخلهم الله برحمته و جعلهم مع إخوانهم من المرسلين

(إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)إنهم ممن صلح باطنه و ظاهره فأطاع الله و عمل بما أمره به و أثابهم الثواب العاجل و الآجل و لو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين و جعل لهم لسان صدق فى الآخرين لكفى بذلك شرفا و فضلا﴿٨٦﴾

يونس 87-88

(و) اذكر عبدنا و رسولنا(وَذَا ٱلنُّونِ)يونس(النون:–الحوت)بالذكر الجميل و الثناء الحسن

(إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا)هَذِهِ الْقِصَّةُ مَذْكُورَةٌ هَاهُنَا وَ فِي سُورَةِ "الصَّافَّاتِ" وَ فِي سُورَةِ "ن"

وَ ذَلِكَ أَنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى عليه السلام بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ "نِينَوَى" وَ هِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَ تَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ وَ وَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثٍ.

فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَ عَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ خَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَ أَنْعَامِهِمْ وَ مَوَاشِيهِمْ وَ فَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَ أَوْلَادِهَا ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّوَ جَأَرُوا إِلَيْهِ وَ رَغَتِ الإبل و فُصْلانها وَ خَارَتِ الْبَقَرُ وَ أَوْلَادُهَا وَ ثَغَتِ الْغَنَمُ و حُمْلانها فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[يُونُسَ:98]

وَ أَمَّا يُونُسُ عليه السلام فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ فَلَجَّجت بِهِمْ وَ خَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا .

فَاقْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ فَأَبَوْا أَنْ يُلْقُوهُ ثُمَّ أَعَادُوا الْقُرْعَةَ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا فَأَبَوْا ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

{فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [الصَّافَّات:141] أَيْ: وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ فَقَامَ يُونُسُ عليه السلام وَ تَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ وَ قَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ -

فِيمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ-حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَلَّا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا وَ لَا تُهَشِّمَ لَهُ عَظْمًا فَإِنَّ يُونُسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا وَ إِنَّمَا بَطْنُكَ لَهُ يَكُونُ سِجْنًا.

و هذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله و لكنه عليه السلام ذهب مغاضبا و أبق عن ربه لذنب من الذنوب التى لم يذكرها الله لنا فى كتابه و لا حاجة لنا إلى تعيينها لقوله:-(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ وَهُوَ مُلِيمٌ)

أى: فاعل ما يلام عليه

(فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ)و الظاهر أن عجلته و مغاضبته لقومه و خروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك ظن أن الله لا يقدر عليه(من التقدير) أى:-

يضيق عليه في بطن الحوت أو ظن أنه سيفوت الله تعالى

(ليس المراد أن لن نستطيع عليه من القدرة قال القرطبى:-و هذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر)

و لا مانع من عروض هذا الظن للكمل من الخلق على وجه لا يستقر و لا يستمر عليه فركب في السفينة مع أناس فاقترعوا من يلقون منهم في البحر؟

لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم فأصابت القرعة يونس فالتقمه الحوت و ذهب به إلى ظلمات البحار

*يُرْوَى نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٍ وَ الضَّحَّاكِ وَ غَيْرِهِمْ وَ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَ اسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}[الطَّلَاق:7]

(فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ)قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ وَ ظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ.

(أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

فأقر لله تعالى بكمال الألوهية و نزهه عن كل نقص و عيب و آفة و اعترف بظلم نفسه و جنايته.

*الترمذى3505 - عَنْ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: -

" دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ:-لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ "

قال الله تعالى:-(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)﴿٨٧﴾ و لهذا قال هنا :-

(فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ)أى الشدة التى وقع فيها

(وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ)و هذا وعد و بشارة لكل مؤمن وقع في شدة و غم أن الله تعالى سينجيه منها و يكشف عنه و يخفف لإيمانه كما فعل بـــــ« يونس »عليه السلام﴿٨٨﴾

زكريا 89-90

(وَزَكَرِيَّآ)أى:و اذكر عبدنا و رسولنا زكريا منوها بذكره ناشرا لمناقبه و فضائله التى من جملتها:-
هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق و رحمة الله إياه و أنه

(إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدًا)أنه لما تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه فى الدعوة إلى الله و النصح لعباد الله و أن يكون فى وقته فردا و لا يخلف من يشفعه و يعينه على ما قام به

(وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ)الباقين و خير من خلفنى بخير و أنت أرحم بعبادك منى و لكنى أريد ما يطمئن به قلبى و تسكن له نفسى و يجرى فى موازينى ثوابه (دُعَاءٌ وَ ثَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا* وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)﴿٨٩﴾

(فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ)النبى الكريم الذى لم يجعل الله له من قبل سميا.

(وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ)

بعدما كانت عاقرا لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا

*و هذا من فوائد الجليس و القرين الصالح أنه مبارك على قرينه فصار يحيى مشتركا بين الوالدين.

و لما ذكر هؤلاء الأنبياء و المرسلين كلا على انفراده أثنى عليهم عموما فقال:-

(إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ)يبادرون(فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ)و يفعلونها فى أوقاتها الفاضلة و يكملونها على الوجه اللائق الذى ينبغى و لا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها

(وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا)أى: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا و الآخرة

(وَرَهَبٗا)و يتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين و هم راغبون راهبون لا غافلون لاهون و لا مدلون

(وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ)خاضعين متذللين متضرعين و هذا لكمال معرفتهم بربهم﴿٩٠﴾

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

و اذكر مريم عليها السلام مثنيا عليها مبينا لقدرها شاهرا لشرفها فقال:-

(وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا)

حفظته من الحرام و قربانه بل و من الحلال فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة و استغراق وقتها بالخدمة لربها.

و حين جاءها جبريل فى صورة بشر سوى تام الخلق و الحسن (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا)

فجازاها الله من جنس عملها و رزقها ولدا من غير أب كَمَا قَالَ

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا} [التَّحْرِيم:12]

(فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا)بل نفخ فيها جبريل عليه السلام فحملت بإذن الله.

(وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ)دَلَالَةً عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

وَ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82] وَ هَذَا كَقَوْلِهِ: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [مَرْيَم:21]

*حيث حملت به و وضعته من دون مسيس أحد و حيث تكلم فى المهد و برأها مما ظن بها المتهمون

و أخبر عن نفسه فى تلك الحالة و أجرى الله على يديه من الخوارق و المعجزات ما هو معلوم

فكانت و ابنها آية للعالمين يتحدث بها جيلا بعد جيل و يعتبر بها المعتبرون﴿٩١﴾

*و لما ذكر الأنبياء عليهم السلام قال مخاطبا للناس:-(إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ)دينكم_سنتكم_شريعتكم

*أى: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم و أئمتكم الذين بهم تأتمون و بهديهم تقتدون كلهم على دين واحد

و صراط واحد و الرب أيضا واحد. و لهذا قال:-

وحدة دعوة الأنبياء و موقف الناس منهم 92-95

(وَأَنَا رَبُّكُمْ)الذى خلقتكم و ربيتكم بنعمتى فى الدين و الدنيا

فإذا كان الرب واحدا و النبى واحدا و الدين واحدا و هو عبادة الله وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم و الواجب عليكم القيام بها

و لهذا قال:–(فَٱعۡبُدُونِ)فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

و كان اللائق الاجتماع على هذا الأمر و عدم التفرق فيه و لكن البغى و الاعتداء أبيا إلا الافتراق و التقطع.

*البخارى3442 – عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-

«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ(أخص الناس به وأقربهم إليه لأنه بشر به أو لأنه لا نبي بينهما فكأنهما في زمن واحد)بِابْنِ مَرْيَمَ وَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلَّاتٍ (هم الأخوة لأب واحد من أمهات مختلفة والمعنى أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن وحسب العموم والخصوص)

لَيْسَ بَيْنِى وَ بَيْنَهُ نَبِيٌّ»يَعْنِي:أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِشَرَائِعَ مُتَنَوِّعَةٍ لِرُسُلِهِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [الْمَائِدَة:48]﴿٩٢﴾و لهذا قال:–

(وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ)تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقا و تشتتوا كل يدعى أن الحق معه و الباطل مع الفريق الآخر و(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

و قد علم أن المصيب منهم من كان سالكا للدين القويم و الصراط المستقيم مؤتما بالأنبياء و سيظهر هذا إذا انكشف الغطاء و برح الخفاء و حشر الله الناس لفصل القضاء فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب

و لهذا قال:–(كُلٌّ)من الفرق المتفرقة و غيرهم (إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ)أى:–فنجازيهم أتم الجزاء﴿٩٣﴾

ثم فصل جزاءه فيهم منطوقا و مفهوما فقال:–

(فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)أى:–الأعمال التى شرعتها الرسل و حثت عليها الكتب

(وَهُوَ مُؤۡمِنٞ)بالله و برسله و ما جاءوا به

(فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ)أى: لا نضيع سعيه و لا نبطله بل نضاعفه له أضعافا كثيرة. كَقَوْلِهِ: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الْكَهْفِ:30]أَىْ: لَا يُكْفَر سعيُه وَ هُوَ عَمَلُهُ بَلْ يُشْكَر فَلَا يُظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ)مثبتون له فى اللوح المحفوظ و فى الصحف التى مع الحفظة.

أى: و من لم يعمل من الصالحات أو عملها و هو ليس بمؤمن فإنه محروم خاسر فى دينه و دنياه﴿٩٤﴾

(وَحَرَٰمٌ)يمتنع(عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ)على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه

(أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ)فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك و عذب

فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم فلا يمكن رفعه و ليقلعوا وقت الإمكان و الإدراك﴿٩٥﴾

يأجوج و مأجوج و جزاء المشركين 96-100

(حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ)هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر و المعاصى و أنه قد قرب انفتاح يأجوج و مأجوج و هما قبيلتان عظيمتان من بنى آدم و قد سد عليهم ذو القرنين لما شكى إليه إفسادهم فى الأرض و فى آخر الزمان ينفتح السد عنهم

(وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ)مكان مرتفع

(يَنسِلُونَ)يخرجون مسرعين

و فى هذا دلالة على كثرتهم الباهرة و إسراعهم فى الأرض إما بذواتهم و إما بما خلق الله لهم من الأسباب التى تقرب لهم البعيد و تسهل عليهم الصعب و أنهم يقهرون الناس و يعلون عليهم فى الدنيا و أنه لا يد لأحد بقتالهم.

*مسلم(2937)عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ:-ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺالدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَ رَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟»
قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَ رَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ
فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَ أَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَ إِنْ يَخْرُجْ وَ لَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَ اللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَ الْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا»قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَ مَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟
قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَ يَوْمٌ كَشَهْرٍ وَ يَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَ سَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»
قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»
قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَ مَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟قَالَ:-
كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَ الْأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْأَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًاوَ أَسْبَغَهُ ضُرُوعًاوَ أَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
وَ يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِى كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ
فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَ إِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ
فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَ نَفَسُهُ يَنْتَهِى حَيْثُ يَنْتَهِى طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَ يُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى:-
إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِى إِلَى الطُّورِ
وَ يَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَ يَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَ يُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ
حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَ أَصْحَابُهُ

فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَ أَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَ نَتْنُهُمْ
فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَ أَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ
ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَ لَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ:-
أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَ رُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَ يَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَ يُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ
حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ وَ اللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ
وَ اللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً
فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَ كُلِّ مُسْلِمٍ وَ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ
الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ "﴿٩٦﴾

(وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ)يوم القيامة الذى وعد الله بإتيانه و وعده حق و صدق

ففى ذلك اليوم(فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ)مفتوحة لا تكاد تَطْرِف(أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)من شدة الأفزاع و الأهوال المزعجة و القلاقل المفظعة و ما كانوا يعرفون من جناياتهم و ذنوبهم

(يَٰوَيۡلَنَا)و أنهم يدعون بالويل و الثبور و الندم و الحسرة على ما فاتو يقولون لــ(قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا) اليوم العظيم فلم نزل فيها مستغرقين و فى لهو الدنيا متمتعين حتى أتانا اليقين و وردنا القيامة فلو كان يموت أحد من الندم و الحسرة لماتوا.

(بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ)اعترفوا بظلمهم و عدل الله فيهم فحينئذ يؤمر بهم إلى النار هم و ما كانوا يعبدون﴿٩٧﴾

و لهذا قال:-(إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)أى: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره

(حَصَبُ)وقود و حطب(جَهَنَّمَ)كَقَوْلِهِ{وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التَّحْرِيمِ:6]

(أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ)داخلون و أصنامكم.

و الحكمة فى دخول الأصنام النار و هى جماد لا تعقل و ليس عليها ذنب بيان كذب من اتخذها آلهة و ليزداد عذابهم﴿٩٨﴾ فلهذا قال:-

(لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ)و هذا كقوله(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)

و كل من العابدين و المعبودين فيها خالدون لا يخرجون منها و لا ينتقلون عنها(وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ)﴿٩٩﴾

(لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ)خُرُوجُ أَنْفَاسِهِمْ من شدة العذاب كَمَا قَالَ{لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}[هُودٍ:106]الشَّهِيقُ:وُلُوجُ أَنْفَاسِهِمْ

(وَهُمۡ فِيهَا)أى:-فى النار (لَا يَسۡمَعُونَ)من هول عذابهم.

*صم بكم عمى أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها لـ:–شدة غليانها و اشتداد زفيرها و تغيظها.

و دخول آلهة المشركين النار إنما هـو:–الأصنام أو من عُبِدَ و هو راض بعبادته (١٠٠)

و أما المسيح و عزير و الملائكة و نحوهم ممن عبد من الأولياء فإنهم لا يعذبون فيها و يدخلون فى قوله:–

(إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ)

سابقة السعادة فى علم الله و فى اللوح المحفوظ و فى تيسيرهم فى الدنيا لليسرى و الأعمال الصالحة.

نجاة المؤمنين من فزع يوم القيامة 101-103

(أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا)أى: عن النار

(مُبۡعَدُونَ)فلا يدخلونها و لا يكونون قريبا منها بل يبعدون عنها غاية البعد حتى لا يسمعوا حسيسها و لا يروا شخصها.

*الصحيح المسند من أسباب النزول قوله{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}[الأنبياء 101 :102]

قال الإمام الطحاوى فى مشكل الآثار عن ابن عباس قال:-آية فى كتاب الله عز وجل لا يسألنى الناس عنها و لا أدرى أعرفوا و لا يسألونى عنها فسئل ما هى قال لما نزلت{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}شق ذلك على أهل مكة و قالوا شتم محمد آلهتنا فجاءهم ابن الزبعرى فقال ما شأنكم؟

قالوا شتم محمد آلهتنا.قال: و ما قال. قالوا: قال:{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}

قال ادعوه لى فدعا محمدا ﷺفقال ابن الزبعرى يا محمد هذا شىء لآلهتنا خاصة أم لكل ما عبد من دون الله؟ قال:"بل لكل ما عبد من دون الله عز وجل".

قال:-فقال خصمناه و رب هذه البنية يا محمد

ألست تزعم أن عيسى عبد صالح و عزيرا عبد صالح و الملائكة عباد صالحون قال: "بلى" قال:-

فهذه النصارى تعبد عيسى و هذه اليهود تعبد عزيرا و هذه بنو مليح تعبد الملائكة

قال فضج أهل مكة فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}قال و نزلت:-

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} و هو الضجيج (١٠١)

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

(لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا)حَرِيقَهَا فِي الْأَجْسَادِ قَالَ: حَيَّاتٌ عَلَى الصِّرَاطِ تَلْسَعُهُمْ فَإِذَا لَسَعَتْهُمْ قَالَ:-حَسَ حَسَ

(وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)من المآكل و المشارب و المناكح و المناظر مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر مستمر لهم ذلك يزداد حسنه على الأحقاب﴿١٠٢﴾

(لَا يَحْزُنُهُمُ)يقلقهم(الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)إذا فزع الناس أكبر فزع و ذلك يوم القيامة حين تقرب النار تتغيظ على الكافرين و العاصين فيفزع الناس لذلك الأمر و هؤلاء لا يحزنهم لعلمهم بما يقدمون عليه و أن الله قد أمنهم مما يخافون.

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)إذا بعثوا من قبورهم و أتوا على النجائب وفدا لنشورهم مهنئين لهم قائلين:-

(هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

فليهنكم ما وعدكم الله و ليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة و ليكثر فرحكم و سروركم بما أمنكم الله من المخاوف و المكاره﴿١٠٣﴾

(يَوْمَ)القيامة(نَطْوِي السَّمَاءَ)على عظمها و اتساعها

(كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)كما تُطوى الصحيفة على ما كُتب فيها

(أى للمكتوب فى السجل و السجل هنا هو الصحيفة فيكون المعنى:-

يوم نطوى السماء كطى السجل على ما كتب فيه و ليس الكتب هنا جمع كتاب)

فتنتثر نجومها و يكور شمسها و قمرها و تزول عن أماكنها

*عَلَى هَذَا الْكِتَابِ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزُّمَر: 67]

*البخارى 7412-عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:-

إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضَ وَ تَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ:-أَنَا المَلِكُ "

(كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ)

أى: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم فكما ابتدأنا خلقهم و لم يكونوا شيئا كذلك نعيدهم بعد موتهم.

(وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ)ننفذ ما وعدنا لكمال قدرته و أنه لا تمتنع منه الأشياء.

*أحمد 2027 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:-

«يُحْشَرُ النَّاسُ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلًا فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام» ثُمَّ قَرَأَ:-{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: 104] ﴿١٠٤﴾

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ)و هو الكتاب المزبور و المراد: الكتب المنزلة كالتوراة و نحوها

(مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ)أى: كتبناه فى الكتب المنزلة بعد ما كتبنا فى الكتاب السابق الذى هو اللوح المحفوظ

و أم الكتاب الذى توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه و المكتوب فى ذلك:—

(أَنَّ ٱلْأَرْضَ)أى:—أرض الجنة

(يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ)الذين قاموا بالمأمورات و اجتنبوا المنهيات فهم الذين يورثهم الله الجنات

كقول أهل الجنة:(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-

{إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأَعْرَاف:128]

و يحتمل أن المراد:—الاستخلاف فى الأرض و أن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض و يوليهم عليها كقوله

تعالى:—وَ قَالَ:-{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [النُّور:55] ﴿١٠٥﴾

*يثنى الله تعالى على كتابه العزيز « القرآن »و يبين كفايته التامة عن كل شيء

و أنه لا يستغنى عنه فقال: (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ)

أى: يتبلغون به فى الوصول إلى ربهم و إلى دار كرامته فوصلهم إلى أجل المطالب و أفضل الرغائب.

و ليس للعابدين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية لأنه الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه و صفاته و أفعاله

و بالإخبار بالغيوب الصادقة و بالدعوة لحقائق الإيمان و شواهد الإيقان المبين للمأمورات كلها و المنهيات

جميعا المعرف بعيوب النفس و العمل

و الطرق التى ينبغى سلوكها في دقيق الدين وجليله و التحذير من طرق الشيطان و بيان مداخله على الإنسان

فمن لم يغنه القرآن فلا أغناه الله و من لا يكفيه فلا كفاه الله ﴿١٠٦﴾

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن فقال:–

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ)

فهو رحمته المهداة لعباده فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة و شكروها و قاموا بها و غيرهم كفرها و بدلوا نعمة الله كفرا و أبوا رحمة الله و نعمته.

صفة النبى ﷺ و مهمته و تهديد المشركين 107-112

*مسلم (2599) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ قَالَ: قِيلَ:-
يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ:«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَ إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»
*فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ رَحْمَةٍ حَصَلَتْ لِمَنْ كَفَر بِهِ؟
فَالْجَوَابُ ما رواه أبو جعفر بن جرير:-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}
قَالَ: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ كُتِبَ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ عُوفِي مِمَّا أَصَابَ الْأُمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَ الْقَذْفِ﴿١٠٧﴾

(قُلۡ)يا محمد (إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ)الذى لا يستحق العبادة إلا هو

و لهذا قال: (فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ)منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التى فاقت المنن﴿١٠٨﴾

(فَإِن تَوَلَّوۡاْ)عن الانقياد لعبودية ربهم فحذرهم حلول المثلات و نزول العقوبة.

(فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ)أعلمتكم بالعقوبة

(عَلَىٰ سَوَآءٖۖ)علمى و علمكم بذلك مستو فلا تقولوا–إذا أنزل بكم العذاب:-(مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ)
بل الآن استوى علمى و علمكم لما أنذرتكم و حذرتكم و أعلمتكم بمآل الكفر و لم أكتم عنكم شيئا.

*أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرْب لَكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ حَرْبٌ لِي بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ بُرآء مِنِّى كَقَوْلِهِ:-

{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}[يُونُس: 41]

وَ قَالَ {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ}[الْأَنْفَالِ: 58]لِيَكُنْ عِلْمُكَ وَ عِلْمُهُمْ بِنَبْذِ الْعُهُودِ عَلَى السَّوَاءِ﴿١٠٩﴾

(وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ)من العذاب لأن علمه عند الله و هو بيده ليس لى من الأمر شيء﴿١١٠﴾

(إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ)

*إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جميعَه وَ يَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَ مَا يُسِرُّونَ يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ وَ الضَّمَائِرَ وَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى وَ يَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي أَجْهَارِهِمْ وَ أَسْرَارِهِمْ وَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ عَلَى الْقَلِيلِ وَ الْجَلِيلِ.

(وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ)أى:لعل تأخير العذاب الذى استعجلتموه شر لكم

(وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ)و أن تتمتعوا فى الدنيا إلى حين ثم يكون أعظم لعقوبتكم﴿١١١﴾

(قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم)افْصِلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ (بِٱلۡحَقِّۗ)

فاستجاب الله هذا الدعاء و حكم بينهم فى الدنيا قبل الآخرة بما عاقب الله به الكافرين من وقعة«بدر»و غيرها

*قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَقُولُونَ:-{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الْأَعْرَافِ: 89]

وَ أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺأَنْ يَقُولَ ذَلِكَ

(وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ)نسأل ربنا الرحمن و نستعين به

(عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ يَفْتَرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَ يَتَنَوَّعُونَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ و الإفك

سنظهر عليكم و سيضمحل دينكم فنحن فى هذا لا نعجب بأنفسنا و لا نتكل على حولنا و قوتنا و إنما نستعين بالرحمن الذى ناصية كل مخلوق بيده و نرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته و قد فعل و لله الحمد﴿١١٢﴾

الاعجاز فى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) الرابط

الدراسات السابقة:

أجريت مسحاً موسعاً عن بحوث الإعجاز العلمى للقرآن والسنة النبوية مفتشاً عن معنى كطى السجل للكتب و فى الحقيقة لم أجد بحثاً يتناول هذه الآية و يفسرها تفسيراً علميا سوى أني عثرت على ذات العنوان الذى كنت أبحث فيه و أفتش عن معانيه العلمية إذ تناول الأخ الكريم المهندس عبد الدائم كحيل الموضوع يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب حيث فسر الباحث جزاه الله خيراً معنى و كيفية الطى بالمنظور العلمى أى أنه وجد إعجازاً علمياً فى الشطر أو الجزء الأول من الآية وتحديداً فيما يتعلق بالطى. أما بحثي هذا فيأتى بإظهار الإعجاز المكمل للآية فى شطرها أو جزئها الثانى و تحديداً فيما يتعلق بمعنى الكتب (كطى السجل للكتب).

معنى الكتب:-

معنى الكتب التى وردت فى الآية الكريمة الكتب هى جمع كتاب

و الكتاب هو الوسيلة التى يكتب عليها أو فيها معلومات لغرض حفظها ومراجعتها فى أى وقت.

بما أن السموات تضم الكواكب والنجوم بما فيها الأرض إذاً هذه الكواكب والنجوم ما هى إلا كتب

وكما عبرت الآية (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب)[الأنبياء-104]

لفهم هذا لموضوع علينا إثبات أن الأرض ما هى إلا كتاب ضخم يضم بين جنباته معلومات غزيرة وحقائق هائلة جداً يعجز أى كتاب من كتبنا أن يضاهيه.

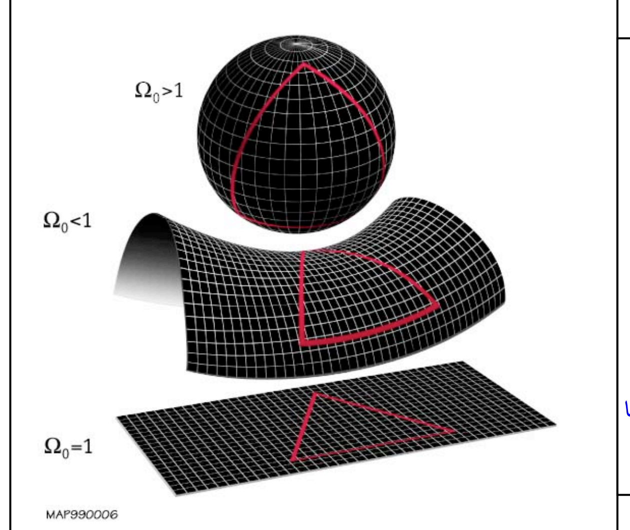
كما أن ما يميز هذا الكتاب (الأرض) أن جميع المعلومات التى فيه هى صحيحة 100% لأنها دونت بإرادة الله تعالى.

أى ما على الإنسان إلا فك رموز وشفرات هذا الكتاب للوصول إلى الحقائق العلمية وهذا فى الحقيقة هو ما يحصل

على سبيل المثال أن وجود حفرة كبيرة على سطح الأرض أو ربما تكون مدفونة هي معلومة مسجلة في صخور الأرض يمكننا قراءتها بعد فك رموزها فقد تكون هذه الحفرة هي أثر سقوط نيزك ضرب الأرض من هنا يقوم علماء الجيولوجيا والفلك بدراسة هذه الحفرة وفق الأسس العلمية ومن ثم يتحقق الباحثون من أن أصل تلك الحفرة هو اصطدام نيزك أم عدمه.

فإذا كان الأمر كذلك فان الجيولوجيون يستطيعون معرفة مصدر وأصل هذا النيزك هل هو من قشرة كوكب متفجر أم من جبتة أم من لب ذلك الكوكب المتفجر

ومن ثم يمكن قياس عمره المطلق (بملايين السنين) بالطرق الإشعاعية بالاعتماد على النظائر
وأما النظائر فما هي إلا معلومات محفوظة في جسم النيزك يمكن حلها بالأجهزة الحديثة مما يدل على أن النيزك هو جزء من كتاب لأنه يحمل لنا معلومات جاءتنا من ذلك الكوكب المتفجر أي أن الكوكب ذاته كتاب عظيم.
من خلال هذا المثال البسيط يتبن أن الأرض والنجوم والكواكب ما هي إلا كتب تزودنا بمعلومات صحيحة وحقيقية إذا أتقنا قرائتها (حل رموزها وفك شيفراتها).



يمثل هذا الشكل احتمالات شكل الكون كما يراه العلماء اليوم
فإما أن يكون بشكل كرة
وإما أن يكون منحنياً أو مسطحاً هناك ثلاث نظريات حسب قيمة العامل أوميغا المكتوب على يسار الشكل و هو كثافة الكون الحرجة أكبر من الواحد يعني كرة أصغر من الواحد يعنى منحنى أو مساوياً للواحد فهذا يعنى أنه مسطح وفى الحالات الثلاث نلاحظ أن الكون يأخذ شكلاً منحنياً سواء كان مسطحاً أو بشكل كرة أو بشكل ورقة منحنية فجميع الأشكال يمكن أن تطوى كما تطوى الورقة وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى:
(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء:104]

الأرض و الكواكب و النجوم كتب عظيمة...

سجلت الأرض أحداث الزمن الماضى منذ بداية تكونها قبل أكثر من 4.5 بليون سنة و لحد الان و ما زالت تدون لنا المعلومات في صخورها ومستحاثاتها وأغلفتها وطبقاتها ومظاهرها وتضاريسها وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن أنواع المستحاثات الحيوانية المحفوظة فى صخور الأرض تدلنا على عمر الطبقات الأرضية الحاضنة لهذه المستحاثات و تدلنا على طبيعة البيئة السائدة فى ذلك الزمن و عمق المياه ودرجة حرارتها ومقدار ملوحتها ومقدار الابتعاد أو الاقتراب عن خط الساحل.
أليست هذه معلومات قيمة جداً محفوظة ضمن صخور الأرض تدلنا على كل هذه المعلومات قبل ملاين السنين. كما أن وجود المستحاثات النباتية والابواغ والسبورات المتحجرة يدون لنا قصة طويلة عن الظروف المناخية والأحوال البيئية السائدة في ذلك الزمن
(الزمن الذي عاشت فيه هذه الأحياء قبل موتها وتحجرها)
قبل ملايين السنين.وقبل خلق الإنسان. لو لم تحفظ لنا الأرض هذه المستحاثات من أين لنا مثل هذه المعلومات. أليس الأرض كتاب كبير و إن الذى يديره هو الله.



إن الترسبات المعدنية المدفونة تحت سطح الأرض تسجل لنا قصة تكونها كاملة فى معادنها و فى الصخور الحاضنة لها وما علينا إلا فك رموز هذه القصص.
فمثلاً وجود بعض أنواع البوكسايت وهو خام الألمنيوم ووجود بعض أنواع الحديد الرسوبى يدل على مناخ مطير طيلة أيام السنة تقريباً مما أدى إلى ذوبان العناصر الفلزية و القلوية من الصخور و التربة و نقلها بهيئة ايونات مع المياه و بقاء عنصرى الألمنيوم والحديد بسبب صعوبة ذوبانهما و باستمرار العملية يتركز الألمنيوم والحديد مكوناً ترسبات اقتصادية مدفونه تحت السطح. إن وجود الصخور النارية و المخاريط البركانية فى مواقع هادئة الآن يدل على إنها كانت في الزمن الماضي مواقع نشطة بركانياً وتكثر فيه الهزات الأرضية.
وإذا سأل سائل ومتى كانت هذه المواقع الخامدة الآن نشطة بركانياً وزلزالياً

فنقول له أنظرنا نسأل الأرض ونقرأ سطور الصخور لنجد الجواب وما علينا إلا أن نجمع العينات من الصخور النارية ونحللها لقياس عمرها.
أليست الارض كتاب يحكى قصة الماضى بكل تفاصيلها.
كما أن المظاهر التركيبية لسطح الأرض كالسلاسل الجبلية البنائية كجبال الألب وجبال الهملايا وزاكروس وطوروس كلها معلومات تدون قصة تكونها
فهى تقص لنا قصة حركة الصفائح الأرضية و كيفية تحركها واتجاهات الحركة وشدتها ومقدارها.
فجبال الألب تمثل تصادم القارة الأفريقية مع القارة الأوربية و جبال الهملايا تمثل تصادم القارة الهندية مع القارة الأسيوية فيما تمثل سلسلة جبال زاكروس بين العراق و إيران حالة تصادم الصفيحة العربية مع الصفيحة الإيرانية وتقص لنا جبال طوروس قصة تصادم الصفيحة العربية مع الصفيحة التركية.
إن عمليات تسجير البحار وتكون السلاسل الجبلية وسط المحيطات حالياً تحمل معلومات عن كيفية نشوئها وتكونها
و ما هى إلا مفتاح لحل الغاز الماضى لمثل هذه الظواهر خصوصا أن علماء الجيولوجيا الغربيين وضعوا مبادئ جيولوجية كثيرة أحدها هو(The Present is a Key of The Past)
ويقصد به الحاضر مفتاح الماضى.
أى أن العمليات الجيولوجية التى تحدث الآن يمكن الاستعانة بها لفك رموز الماضى.
و ما المغناطيسية القديمة الا دليلاً على أن الأرض كتاب كبير يدون أحداث الماضي إلى الأبد.
فما هى المغناطيسية القديمة.
عندما تنبثق الحمم من البراكين تسيل المادة الصخرية على سطح الأرض.
إن المادة الصخرية المنصهرة ما هي إلا مركبات كيميائية معقدة مكونة من عناصر الجدول الدورى المعروفة.
فبعض الصخور التى تحوى على الحديد فى معادنها و قبل أن تتصلب تتأثر بالمجال المغناطيسى الأرضى و ترتب أقطابها المغناطيسية تبعاً لذلك أى أن القطب الشمالى فى الصخرة يتجة نحو القطب المغناطيسى الجنوبى للأرض و العكس بالعكس لأن الأقطاب المختلفة تتجاذب والمتشابهة تتنافر.
ثم بعد ذلك تبرد الصخور و تتصلب.
و إذا حدث و أن تحركت الصفيحة الأرضية التى تحمل هذه الصخور فإن اتجاهاتها المغناطيسية سوف تتغير بسبب حركة الصفيحة الأرضية.
وعند جمع العينات من هذه الصخور ودراسة المغناطيسية القديمة فيها وتحديد أقطابها الشمالية والجنوبية يتسنى لنا متابعة قصة حركة الصفيحة الأرضية واتجاهات الحركة وزاويتها.
من هنا يتبين أن مثل هذه الصخور سوت نفسها بوصلة صغيرة دونت لنا اتجاهاتها المعناطيسية وقت تصلبها لذ ا فأن أي حركة لهذه الصخور يمكن رصدها وحسابها.
إلا يدل ذلك على أن الأرض كتاب عظيم يحوى معلومات حقيقية فى غاية الدقة و الإتقان
بل أن هذا الكتاب يروى لنا قصص متكاملة أذا أحسنا فك رموز القصة.
إن وجود هياكل اسماك عظمية وحيتان متحجرة على قمم الجبال الحالية هى معلومة دونتها لنا صخور الأرض فى كتاب الأرض لتقول لنا ببساطة إعلم و أن هذه القمم الشاهقة التى ترونها الآن كانت فى الزمن الغابر قيعان بحر ومحيطات

و إذا أردتم أن تعرفوا متى كان هذا ما عليكم إلا أن تحددوا أعمار هذه المتحجرات بالطرق المعروفة لدينا الآن.
مما ذكر فى أعلاه يتبين لنا أن الأرض بأغلفتها و صخورها و طبقاتها و بحارها و محيطاتها و جبالها ما هى ألا كتاب دونت لنا أحداث و قصص الزمن الماضى بكل تفاصيله.
إن ما ينطبق على ألأرض ينطبق على الكواكب و النجوم فى هذا الكون الواسع.
(يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)[الأنبياء: 104]

22-سورة الحج-مدنية-بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

أهوال القيامة و البعث 1-7

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ)

يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم الذى رباهم بالنعم الظاهرة و الباطنة فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك و الفسوق و العصيان و يمتثلوا أوامره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى و يحذرهم من تركها و هو الإخبار بأهوال القيامة فقال:-

*كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا 1وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزَّلْزَلَة] و قَالَ تَعَالَى:-

{وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً 14 فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الحَاقَّة] و قَالَ تَعَالَى:-

{إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا 4 وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا 5 فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}[الْوَاقِعَة]

*البخاري4741 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيُنَادَى بِصَوْتٍ:-

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ قَالَ: يَا رَبِّ و مَا بَعْثُ النَّارِ؟

قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ- أُرَاهُ قَالَ- تِسْعَ مِائَةٍ و تِسْعَةً و تِسْعِينَ فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا و يَشِيبُ الوَلِيدُ و تَرَى النَّاسَ سُكَارَى و مَا هُمْ بِسُكَارَى و لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ "

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«مِنْ يَأْجُوجَ و مَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ و تِسْعَةً و تِسْعِينَ و مِنْكُمْ وَاحِدٌ ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ - أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ -

و إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا

ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا قَالَ أَبُو أُسَامَةَ عَنِ الأَعْمَشِ {تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى} [الحج: 2]

وَ قَالَ: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَ تِسْعَةً وَ تِسْعِينَ» وَ قَالَ جَرِيرٌ وَ عِيسَى بْنُ يُونُسَ وَ أَبُو مُعَاوِيَةَ:-
(سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسَكْرَى)

(إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

لا يقدر قدره و لا يبلغ كنهه ذلك بأنها إذا وقعت الساعةرجفت الأرض و ارتجت و زلزلت زلزالها و تصدعت الجبال و اندكت و كانت كثيبا مهيلا ثم كانت هباء منبثا ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء و تكور الشمس و القمر و تنتثر النجوم و يكون من القلاقل و البلابل ما تنصدع له القلوب و تجل منه الأفئدة و تشيب منه الولدان و تذوب له الصم الصلاب

*وَ الزِّلْزَالُ:-هُوَ مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنَ الْفَزَعِ وَ الرُّعْبِ كَقَوله{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا}[الأحزاب 11] ١

و لهذا قال: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ)تَدْهَشُ عَنْهُ فِي حَالِ إِرْضَاعِهَا لَهُ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(كُلُّ مُرْضِعَةٍ)وَ لَمْ يَقُلْ: "مُرْضِعٍ"

*مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها خصوصا فى هذه الحال التى لا يعيش إلا بها.

وَ قَالَ:-(عَمَّآ أَرْضَعَتْ)أَيْ:-عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فِطَامِهِ.

(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)من شدة الفزع و الهول

(وَتَرَى ٱلنَّاسَ)أى: تحسبهمأيها الرائى لهم–(سُكَـٰرَىٰ)من الخمر(وَمَا هُم)و ليسوا(بِسُكَـٰرَىٰ)

(وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ)فلذلك أذهب عقولهم و فرغ قلوبهم و ملأها من الفزع و بلغت القلوب الحناجر و شخصت الأبصار و فى ذلك اليوم لا يجزى والد عن ولده و لا مولود هو جاز عن والده شيئا.

(ويومئذ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)
(وهناك يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا)

و تسود حينئذ وجوه و تبيض وجوه و تنصب الموازين التى يوزن بها مثاقيل الذر من الخير و الشر و تنشر صحائف الأعمال و ما فيها من جميع الأعمال و الأقوال و النيات من صغير و كبير و ينصب الصراط على متن جهنم و تزلف الجنة للمتقين و برزت الجحيم للغاوين

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا* وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ويقال لهم لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا)

و إذا نادوا ربهم ليخرجهم منها قال:–(اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ)

قد غضب عليهم الرب الرحيم و حضرهم العذاب الأليم و أيسوا من كل خير و وجدوا أعمالهم كلها لم يفقدوا منها نقيرا و لا قطميرا هذا و المتقون فى روضات الجنات يحبرون و فى أنواع اللذات يتفكهون و فيما اشتهت أنفسهم خالدون

فحقيق بالعاقل الذى يعرف أن كل هذا أمامه أن يعد له عدته و أن لا يلهيه الأمل فيترك العمل و أن تكون تقوى الله شعاره و خوفه دثاره و محبة الله و ذكره روح أعماله .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ)طائفة و فرقة سلكوا طريق الضلال

(مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ)و جعلوا يجادلون بالباطل الحق يريدون إحقاق الباطل و إبطال الحق

(بِغَيۡرِ عِلۡمٖ)و الحال أنهم فى غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء

(وَيَتَّبِعُ)و غاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من

(كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ)متمرد على الله و على رسله معاند لهم قد شاق الله و رسوله و صار من الأئمة الذين يدعون إلى النار(٣)

(كُتِبَ)قدر(عَلَيۡهِ)أى:–على هذا الشيطان المريد كتابة قدرية(أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ)اتبعه و قلده

(فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ)عن الحق و يجنبه الصراط المستقيم

(وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ)و هذا نائب إبليس حقا فإن الله قال عنه(إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

فهذا الذى يجادل فى الله قد جمع بين:–ضلاله بنفسه و تصديه إلى إضلال الناس

و هو متبع و مقلد لكل شيطان مريد ظلمات بعضها فوق بعض و يدخل فى هذا جمهور أهل الكفر و البدع

فإن أكثرهم مقلدة يجادلون بغير علم(٤)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ)شك و اشتباه(مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ)و عدم علم بوقوعه مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم و تصدقوا رسله فى ذلك و لكن إذا أبيتم إلا الريب فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما

كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه و يزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما:–الاستدلال بابتداء خلق الإنسان و أن الذى ابتدأه سيعيده فقال فيه:–

(فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ)و ذلك بخلق أبى البشر آدم عليه السلام

(ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ)أى: منى و هذا ابتداء أول التخليق

(ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ)أى: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دما أحمر

(ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ)أي: ينتقل الدم مضغة أى: قطعة لحم بقدر ما يمضغ و تلك المضغة تارة تكون

(مُّخَلَّقَةٖ)أى: مصور منها خلق الآدمى(وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ)تارة بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها

*فَإِذَا مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعُون يَوْمًا وَ هِيَ مُضْغَةٌ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا مَلَكًا فَنَفَخَ فِيهَا الرَّوحِ وَ سَوَّاهَا كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَسَنٍ وَ قَبِيحٍ وَ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ كَتَبَ رِزْقَهَا وَ أَجَلَهَا وَ شِقِّيٌّ أَوْ سَعِيدٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ

*البخارى 6594-حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ قَالَ:-

" إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ:-بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ-أَوْ:-الرَّجُلَ-يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ(هو مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يمينا وشمالا)أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا.

وَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا "قَالَ آدَمُ: «إِلَّا ذِرَاعٌ»

*مسلم (2644)عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:-

يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟

فَيُكْتَبَانِ وَ يُكْتَبُ عَمَلُهُ وَ أَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَ رِزْقُهُ ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَ لَا يُنْقَصُ "

(لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ)أصل نشأتكم مع قدرته تعالى على تكميل خلقه فى لحظة واحدة و لكن ليبين لنا كمال حكمته و عظيم قدرته و سعة رحمته.

(وَنُقِرُّ)نبقى(فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ)من الحمل الذي لم تقذفه الأرحام ما نشاء إبقاءه

(إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى)و هو مدة الحمل.

(ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ)من بطون أمهاتكم

(طِفۡلٗا)لا تعلمون شيئا و ليس لكم قدرة و سخرنا لكم الأمهات و أجرينا لكم فى ثديها الرزق

*ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وَ سَمْعِهِ وَ بَصَرِهِ وَ حَوَاسِّهِ وَ بَطْشِهِ وَ عَقْلِهِ.

ثُمَّ يُعْطِيهِ اللَّهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا وَ يَلْطُفُ بِهِ وَ يَحْنُنْ عَلَيْهِ وَالِدَيْه فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافِ النَّهَارِ

وَ لِهَذَا قَالَ:-(ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ)ثم تنتقلون طورا بعد طور حتى تبلغوا أشدكم و هو كمال القوة و العقل.

(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ)من قبل أن يبلغ سن الأشد

(وَمِنكُم مَّن)يتجاوزه فـــ(يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ)أخسه و أرذل(ٱلۡعُمُرِ)و هو سن الهرم و التخريف الذى به يزول العقل و يضمحل كما زالت باقى القوة و ضعفت.

(لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ)

لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئا مما كان يعلمه قبل ذلك و ذلك لضعف عقله

*فقوة الآدمى محفوفة بضعفين:-

1-ضعف الطفولية و نقصها 2-و ضعف الهرم و نقصه

كَمَا قَالَ{اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}[الرُّومِ: 54]

و الدليل الثانى:- إحياء الأرض بعد موتها فقال الله فيه:-

(وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً)خاشعة مغبرة لا نبات فيها و لا خضر

(فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ)تحركت بالنبات

(وَرَبَتْ)ارتفعت بعد خشوعها و ذلك لزيادة نباتها

(وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ)صنف من أصناف النبات

(بَهِيجٍ)يبهج الناظرين و يسر المتأملين فهذان الدليلان القاطعان يدلان على هذه المطالب الخمسة و هى هذه ٥

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(ذَٰلِكَ)الذى أنشأ الآدمى من ما وصف لكم و أحيا الأرض بعد موتها

(بِأَنَّ ٱللَّهَ)أى:الرب المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له و تعبده(هُوَ ٱلۡحَقُّ)و عبادة غيره باطلة

(وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ)كما ابتدأ الخلق و كما أحيا الأرض بعد موتها

(وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)كما أشهدكم من بديع قدرته و عظيم صنعته ما أشهدكم﴿٦﴾

(وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ)شك(فِيهَا)فلا وجه لاستبعادها

(وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ)فيجازيكم بأعمالكم حسنها و سيئها﴿٧﴾

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ)المجادلة المتقدمة للمقلد و هذه المجادلة للشيطان المريد الداعى إلى البدع فأخبر أنه

(مَن يُجَٰدِلُ فِي)رسل(ٱللَّهِ)و أتباعهم بالباطل ليدحض به الحق

جدال المشركين و عبادة المنافقين 8-16

(بِغَيۡرِ عِلۡمٖ)صحيح

(وَلَا هُدٗى)أى: غير متبع فى جداله هذا من يهديه لا عقل مرشد و لا متبوع مهتد

(وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ)أى: واضح بين أى: فلا له حجة عقلية و لا نقلية إن هى إلا شبهات يوحيها إليه الشيطان

(وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ)﴿٨﴾

و مع هذا (ثَانِيَ)لاوى(عِطۡفِهِۦ)جانبه و عنقه

و هذا كناية عن كبره عن الحق و احتقاره للخلق فقد فرح بما معه من العلم غير النافع و احتقر أهل الحق و ما معهم من الحق

(لِيُضِلَّ)الناس_قَالَ بَعْضُهُمْ:-هَذِهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يُقْصَدُ ذَلِكَ
*وَ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَامَ التَّعْلِيلِ ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْمُعَانِدِينَ أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّ هَذَا الْفَاعِلَ لِهَذَا إِنَّمَا جَبَلْنَاهُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ الَّذِى يَجْعَلُهُ مِمَّنْ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

(عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)ليكون من دعاة الضلال

و يدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر و الضلال ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية و الأخروية فقال:-

(لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ)أى: يفتضح هذا فى الدنيا قبل الآخرة و هذا من آيات الله العجيبة

فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر و الضلال إلا و له من المقت بين العالمين و اللعنة و البغض و الذم ما هو حقيق به و كل بحسب حاله.

(وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ)أى:نذيقه حرها الشديد و سعيرها البليغ الناس﴿٩﴾

(ذَٰلِكَ)العذاب(بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ)بسبب ما فَعَلْتَ من المعاصى و اكتسبت من الآثام

(وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ)و الله لا يعذب أحدًا بغير ذنب﴿١٠﴾

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ)من هو ضعيف الإيمان لم يدخل الإيمان قلبه و لم تخالطه بشاشته بل دخل فيه إما خوفا و إما عادة على وجه لا يثبت عند المحن

(مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ)شك

*البخارى4742 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: 11]
قَالَ:-"كَانَ الرَّجُلُ(أى رجل)يَقْدَمُ المَدِينَةَ فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلاَمًا(ولدا ذكرا)وَ نُتِجَتْ(ولدت) خَيْلُهُ قَالَ:- هَذَا دِينٌ صَالِحٌ وَ إِنْ لَمْ تَلِدِ امْرَأَتُهُ وَ لَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينُ سُوءٍ "
*وَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:-هُوَ الْمُنَافِقُ إِنْ صَلُحَتْ لَهُ دُنْيَاهُ أَقَامَ عَلَى الْعِبَادَةِ⇦
وَ إِنْ فَسَدَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَ تَغَيَّرَتْ⇦انْقَلَبَ فَلَا يُقِيمُ عَلَى الْعِبَادَةِ إِلَّا لِمَا صَلَحَ مِنْ دُنْيَاهُ
فَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَوْ شِدَّةٌ أَوِ اخْتِبَارٌ أَوْ ضِيقٌ:-تَرَكَ دِينَهُ وَ رَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ.

(فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ)أى: إن استمر رزقه رغدا و لم يحصل له من المكاره شىء

(ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ)بذلك الخير لا بإيمانه.فهذا ربما أن الله يعافيه و لا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه

(وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ)من حصول مكروه أو زوال محبوب

(ٱنقَلَبَ)ارتد(عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ)عن دينه

(خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا)أما فى الدنيا فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذى جعل الردة رأسا لماله و عوضا عما يظن إدراكه فخاب سعيه و لم يحصل له إلا ما قسم له

(وَٱلۡأٓخِرَةَۚ)و أما الآخرة فظاهر حرم الجنة التى عرضها السماوات و الأرض و استحق النار

(ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ)الواضح البين ١١

(يَدۡعُواْ)يعبد هذا الراجع على وجهه و الخاسر

(مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ)إن تركه(وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ)إذا عبده

*و هذا صفة كل مدعو و معبود من دون الله فإنه لا يملك لنفسه و لا لغيره نفعا و لا ضرا

(ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ)

الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية حيث أعرض عن عبادة النافع الضار الغنى المغنى

و أقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه ليس بيده من الأمر شيء بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب ١٢

و لهذا قال:-(يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ)فإن ضرره فى العقل و البدن و الدنيا و الآخرة معلوم

(لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ)أى: هذا المعبود

(وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ)القرين الملازم على صحبته

فإن المقصود من المولى و العشير حصول النفع و دفع الضرر فإذا لم يحصل شيء من هذا فإنه مذموم ملوم ١٣

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)

لما ذكر تعالى المجادل بالباطل و أنه على قسمين:-1-مقلد 2-و داع

ذكر أن المتسمى بالإيمان أيضا على قسمين:-

1-قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم 2-المؤمن حقيقة صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة

فأخبر تعالى أنه يدخلهم (جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ)

و سميت الجنة جنة لاشتمالها على المنازل و القصور و الأشجار و النوابت التي تجن من فيها و يستتر بها من كثرتها

(إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ)من غير ممانع و لا معارض ومن ذلك إيصال أهل الجنة إليهاجعلنا الله منهم بمنه و كرمه ١٤

(مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ)رسوله(ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ)و أن دينه سيضمحل فإن النصر من الله ينزل من السماء

(فَلۡيَمۡدُدۡ)ذلك الظان (بِسَبَبٍ)حبل(إِلَى ٱلسَّمَآءِ)و ليرقى إليها_سَمَاءِ بَيْتِهِ

(ثُمَّ لْيَقْطَعْ)لِيَخْتَنِقْ بِهِ_النصر النازل عليه من السماء

*قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ51 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[غَافِرٍ] وَ لِهَذَا قَالَ:-

(فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ)ذلك(كَيْدُهُ)خنق نفسه بذلك الحبل (مَايَغِيظُ)ما يجد فى نفسه من الغيظ؟

أى:ما يكيد به الرسول و يعمله من محاربته و الحرص على إبطال دينه (مَايَغِيظُ)ــه من ظهور دينه

و هذا استفهام بمعنى النفى و أنه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب.

و معنى هذه الآية الكريمة:-

يا أيها المعادى للرسول محمد ﷺالساعى فى إطفاء دينه الذى يظن بجهله أن سعيه سيفيده شيئا اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب و سعيت فى كيد الرسول فإن ذلك لا يذهب غيظك و لا يشفى كمدك

فليس لك قدرة فى ذلك و لكن سنشير عليك برأى تتمكن به من شفاء غيظك و من قطع النصر عن الرسول – إن كان ممكنا–ائت الأمر مع بابه و ارتق إليه بأسبابه اعمد إلى حبل من ليف أو غيره ثم علقه فى السماء

ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التى ينزل منها النصر فسدها و أغلقها و اقطعها

فبهذه الحال تشفى غيظك فهذا هو الرأى و المكيدة

و أما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفى بها غيظك و لو ساعدك من ساعدك من الخلق.

و هذه الآية الكريمة فيها:-

1–من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه و لرسوله و عباده المؤمنين ما لا يخفى

2–و من تأييس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم و الله متم نوره و لو كره الكافرون أى: وسعوا مهما أمكنهم﴿١٥﴾

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

(وَكَذَٰلِكَ)لما فصلنا فى هذا القرآن ما فصلنا جعلناه

(أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ)واضحات دالات على جميع المطالب و المسائل النافعة

(وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ)و لكن الهداية بيد الله فمن أراد الله هدايته:

اهتدى بهذا القرآن و جعله إماما له و قدوةو استضاء بنوره

و من لم يرد الله هدايته:

فلو جاءته كل آية ما آمن و لم ينفعه القرآن شيئا بل يكون حجة عليه(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[الْأَنبِيَاء: 23]

أَمَّا هُوَ فَلِحِكْمَتِهِ وَ رَحْمَتِهِ و عَدْلِهِ وَ عِلْمِهِ وَ قَهْرِهِ وَ عَظمَتِهِ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿١٦﴾

حكم الله بين عباده و سجود كل المخلوقات له 17-18

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟)

يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أوتوا الكتاب من المؤمنين و اليهود و النصارى و الصابئين و من المجوس و من المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة

(إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ)بحكمه العدل و يجازيهم بأعمالهم التى حفظها و كتبها و شهدها

و لهذا قال:—(إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)﴿١٧﴾

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعَظَمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ سُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ كَمَا قَالَ:(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)[النَّحْل: 48] وَ قَالَ هَاهُنَا:-(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ)

أَيْ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السموات وَ الْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِنَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ وَ الدَّوَابِّ وَ الطَّيْرِ (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[الإِسْرَاء: 44]

(وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ)إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِيصِ لِأَنَّهَا قَدْ عُبدت مِنْ دُونِ اللَّهِ فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِخَالِقِهَا وَ أَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)[فُصِّلَتْ: 37]

وَ فِي البخارى(4803) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -أَتَدْرِى أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟ "
قُلْتُ: اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ.قَالَ: "فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ
ثُمَّ تُسْتَأْمَرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ"

*مسلم (81) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ-وَ فِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي – أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ "

(وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ)فَسُجُودُهُمَا بفَىء ظِلَالِهِمَا عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمَائِلِ: -

*الترمذى(579)عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ﷜ قَالَ:-جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّ رَأَيْتُنِى اللَّيْلَةَ وَ أَنَا نَائِمٌ كَأَنِّى أُصَلِّى خَلْفَ شَجَرَةٍ فسجدتُ فسجَدَت الشَّجَرَةُ لِسُجُودِى فسمعتُها وَ هِىَ تَقُولُ:-اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا وَ ضَعْ عَنِى بِهَا وِزْرًا وَ اجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا وَ تَقَبَّلْهَا مِنِّى كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ.

قَالَ ابْنُ عباس:-فقرأ النَّبِىُّ ﷺسَجْدَةً ثُمَّ سَجد فَسَمِعْتُهُ وَ هُوَ يقولُ مثل مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ.

(وَٱلدَّوَآبُّ)أَيِ: الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا.

*أحمد 15629 - عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺأَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَ هُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابَّ لَهُمْ وَ رَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمْ:-" ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَ دَعُوهَا سَالِمَةً[وَ لَا تَتَّخِذُوها كَرَاسِىَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَ الْأَسْوَاقِ] فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَ أَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى مِنْهُ "

(وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ)أَىْ: يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ

(وَكَثِيرٌ حَقَّ)وجب و كتب(عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ)أَىْ:-مِمَّنِ امْتَنَعَ وَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ

أي: لكفره و عدم إيمانه فلم يوفقه للإيمان لأن الله أهانه و اعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له جميع من فى السماوات و الأرض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الشجر و الدواب الذي يشمل الحيوانات كلها و كثير من الناس و هم المؤمنون

(وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ)أىُّ إنسان يهنه الله(فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ)فليس له أحد يكرمه.

(إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ)فى خلقه ما يشاء وَفْقَ حكمته و لا راد لما أراد و لا معارض لمشيئته

فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته مستكينة لعزته عانية لسلطانه دل على أنه وحده الرب المعبود و الملك المحمود و أن من عدل عنه إلى عبادة سواه فقد ضل ضلالا بعيدا و خسر خسرانا مبينا﴿١٨﴾

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-البخارى 3969 - عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ:

سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يُقْسِمُ قَسَمًا: إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)[الحج: 19]نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ:-حَمْزَةَ وَعَلِيٍّ وَعُبَيْدَةَ بْنِ الحَارِثِ و عُتْبَةَ و شَيْبَةَ ابْنَىْ رَبِيعةَ و الوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ "

*البخارى3965-عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍﷺأَنَّهُ قَالَ:-أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» وَ قَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ:وَ فِيهِمْ أُنْزِلَتْ:(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) [الحج: 19]

قَالَ:-هُمُ الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةُ وَ عَلِيٌّ وَ عُبَيْدَةُ أَوْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الحَارِثِ وَ شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَ الوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ "

جزاء الكافرين و المؤمنين 19-24

*ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله:-(هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ)كل يدعى أنه المحق.

(فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)يشمل كل كافر من اليهودو النصاربو المجوس و الصابئين و المشركين.

(قُطِّعَتۡ)يجعل(لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ)من قطران و تشعل فيها النار ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم.

(يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ)الماء الحار جدا﴿١٩﴾

(يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ)من اللحم و الشحم و الأمعاء من شدة حره و عظيم أمره(وَٱلۡجُلُودُ)﴿٢٠﴾

(وَلَهُم مَّقَٰمِعُ)مطارق(مِنۡ حَدِيدٖ)بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضربهم فيها و تقمعهم﴿٢١﴾

(كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ)لشدة غمِّهم و كربهم(أُعِيدُواْ)للعذاب(فِيهَا)

لا يفتر عنهم العذاب و لا هم ينظرون و يقال لهم توبيخا:-

(وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ)المحرق للقلوب و الأبدان﴿٢٢﴾

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ)

و معلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين الذين آمنوا بجميع الكتب و جميع الرسل

*تتخرّق فِي أَكْنَافِهَا وَ أَرْجَائِهَا وَ جَوَانِبِهَا وَ تَحْتَ أَشْجَارِهَا وَ قُصُورِهَا يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَ أَيْنَ شَاءُوا

(يُحَلَّوۡنَ)يُزَيَّنون(فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ)يسورون فى أيديهم رجالهم و نساؤهم أساور الذهب.

*مسلم(250) عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ
وَ هُوَ يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ فَكَانَ يَمُدُّ يَدَهُ حَتَّى تَبْلُغَ إِبْطَهُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا هَذَا الْوُضُوءُ؟
فَقَالَ: يَا بَنِي فَرُّوخَ أَنْتُمْ هَاهُنَا؟ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ هَاهُنَا مَا تَوَضَّأْتُ هَذَا الْوُضُوءَ
سَمِعْتُ خَلِيلى ﷺيَقُولُ:-«تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوَضُوءُ»

(وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ)فِي مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِى فُصِّلَتْ لَهُمْ لِبَاسُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَرِيرِ إِسْتَبْرَقِهِ و سُنْدُسه كَمَا قَالَ:(عَالِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا21 إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا)[الإِنسَان]

وَ فِي البخارى 5832:قال النبىﷺ :-

"لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَ لَا الدِّيبَاجَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ

*فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها لفظ الجنات و ذكر الأنهار السارحات أنهار الماء و اللبن و العسل و الخمر و أنواع اللباس و الحلى الفاخر.و ذلك بسبب أنهم :–

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

(وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ)الذى أفضله و أطيبه كلمة الإخلاص ثم سائر الأقوال الطيبة التى فيها ذكر الله أو إحسان إلى عباد الله كَقَوْلِهِ:-(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ)[إبْرَاهِيمَ: 23] وَ قَوْلِهِ:-(وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ23سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)[الرَّعْدِ] وَ قَوْلِهِ:-(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا25 إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا)[الْوَاقِعَةِ: 25 26]

فَهُدُوْا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِى يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ(وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا) [الْفُرْقَانِ: 75]

لَا كَمَا يُهَانُ أَهْلُ النَّارِ بِالْكَلَامِ الَّذِى يُرَوّعون بِهِ وَ يُقَرَّعُونَ بِهِ يُقَالُ لَهُمْ: (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

(وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ)الـــ(صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ)المحمود

و ذلك لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة و الحمد و حسن المأمور به و قبح المنهى عنه و هو الدين الذى لا إفراط فيه و لا تفريط المشتمل على العلم النافع و العمل الصالح.

*أو:و هدوا إلى صراط الله الحميد لأن الله كثيرا ما يضيف الصراط إليه لأنه يوصل صاحبه إلى الله

(وَهُدُوٓاْ)إِلَى الْمَكَانِ الَّذِى يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَ أَنْعَمَ بِهِ وَ أَسْدَاهُ إِلَيْهِمْ كَمَا جَاءَ مسلم (2835) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:-سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:-

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَ يَشْرَبُونَ وَ لَا يَتْفُلُونَ وَ لَا يَبُولُونَ وَ لَا يَتَغَوَّطُونَ وَ لَا يَمْتَخِطُونَ»

قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ:-«جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»

*وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ:-(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ)أَيِ:-الْقُرْآنِ.وَ قِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَ قِيلَ:-الْأَذْكَارُ الْمَشْرُوعَةُ(وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)أَيِ:-الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا.
وَ كُلُّ هَذَا لَا يُنَافِي ما ذكرناه و الله أعلم.
*و فى ذكر (الْحَمِيدِ)هنا ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم و منته عليهم و لهذا يقولون فى الجنة:–
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ فِي صَدّهم الْمُؤْمِنِينَ عَنْ إِتْيَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ قَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ فِيهِ
وَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ:-(وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[الْأَنْفَال: 34]
وَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ "الْبَقَرَةِ":-
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ)[الْبَقَرَة: 217]﴿٢٤﴾

صد المشركين عن المسجد الحرام و الأمر بالحج 25-29

وَ قَالَ: هَاهُنَا:-(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)وَ مِنْ صِفَتِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمُ
(وَيَصُدُّونَ)يمنعون(عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ
.وَ هَذَا التَّرْكِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[الرَّعْد: 28]
أَيْ: وَ مِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ.
(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ)جَعَلَهُ اللَّهُ شَرْعًا(سَوَاءً)لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ(الْعَاكِفُ)الْمُقِيم(فِيهِ)
(وَالْبَادِ)النَّائِي عَنْهُ الْبَعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ(وَمَن يُرِدْ فِيهِ)فى المسجد الحرام
(بِإِلْحَادٍ)الميْلَ عن الحق يَهُمّ فِيهِ بِأَمْرٍ فَظِيعٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ.
(بِظُلْمٍ)عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظُلْمٌ لَيْسَ بِمُتَأَوِّلٍ_بِشِرْكٍ_يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا.
وَ هَذَا مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ أَنَّهُ يعاقب الْبَادِى فِيهِ الشَّرَّ (إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ وَ إِنْ لَمْ يُوقِعْهُ)
*فى هذه الآية تَنْبِيهٌ عَلَى مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْهَا وَ لِهَذَا لَمَّا هَمَّ أَصْحَابُ الْفِيلِ عَلَى تَخْرِيبِ الْبَيْتِ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ4فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)[الفِيل]:-
دمَّرهم وَ جَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَ نَكَالًا لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ
وَ لِذَلِكَ ثَبَتَ فِي البخارى2118 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-
"يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِف بِأَوَّلِهِمْ وَ آخِرِهِمْ"
(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)﴿٢٥﴾
*هَذَا فِيهِ تَقْرِيعٌ وَ تَوْبِيخٌ لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ وَ أَشْرَكَ بِهِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِى أسسّتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
* ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قُلْتُ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ؟
قَالَ:"الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "بَيْتُ الْمَقْدِسِ" قُلْتُ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ:"أَرْبَعُونَ سَنَةً" (4)
*وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ96 فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ[آلِ عِمْرَانَ]
وَ قَالَ تَعَالَى:-(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[الْبَقَرَة: 125]

*يذكر تعالى عظمة البيت الحرام و جلالته و عظمة بانيه و هو خليل الرحمن فقال:–

(وَإِذۡ بَوَّأۡنَا)هيأنا(لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ)له و أنزلناه إياه و جعل قسما من ذريته من سكانه و أمره الله ببنيانه فبناه على تقوى الله و أسسه على طاعة الله و بناه هو و ابنه إسماعيل

(أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا)و أمره أن لا يشرك به شيئا بأن يخلص لله أعماله و يبنيه على اسم الله.

(وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ)من الشرك و المعاصى و من الأنجاس و الأدناس

*و أضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه و فضله و لتعظم محبته فى القلوب و تنصب إليه الأفئدة من كل جانب و ليكون أعظم لتطهيره و تعظيمه لكونه بيت الرب

(لِلطَّآئِفِينَ)به و العاكفين عنده

(وَٱلۡقَآئِمِينَ)المقيمين لعبادة من العبادات من ذكرو قراءة و تعلم علم و تعليمه و غير ذلك من أنواع القرب

(وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ)أى:–المصلين أى: طهره لهؤلاء الفضلاء الذين همهم طاعة مولاهم و خدمته و التقرب إليه عند بيته فهؤلاء لهم الحق و لهم الإكرام

*و من إكرامهم تطهير البيت لأجلهم و يدخل فى تطهيره تطهيره من الأصوات اللاغية و المرتفعة التى تشوش المتعبدين بالصلاة و الطواف و قدم الطواف على الاعتكاف و الصلاة لاختصاصه بهذا البيت ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد.

*فَقَرَنَ الطَّوَافَ بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصَّيْنِ بِالْبَيْتِ فَالطَّوَافُ عِنْدَهُ وَ الصَّلَاةُ إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ إِلَّا مَا اسْتُثْنِىَ مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْقِبْلَةِ وَ فِي الْحَرْبِ وَ فِي النَّافِلَةِ فِي السِّفْرِ وَ اللَّهُ أعلم﴿٢٦﴾

(وَأَذِّن)أعلم(فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ)و ادعهم إليه و بلغ دانيهم و قاصيهم فرضه و فضيلته

(يَأۡتُوكَ)فإنك إذا دعوتهم أتوك حجاجا و عمارا(رِجَالٗا)مشاة على أرجلهم من الشوق(ليس المراد هنا:الذكور)

(وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ)ناقة ضامر تقطع المهامه و المفاوز و تواصل السير حتى تأتى إلى أشرف الأماكن

(يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ)طَرِيقٍ(عَمِيقٖ)كَمَا قَالَ:-(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا)[الأنبياء: 31]أى: من كل بلد بعيد و قد فعل الخليل عليه السلام ثم من بعده ابنه محمد ﷺ فدعيا الناس إلى حج هذا البيت و أبديا فى ذلك و أعادا و قد حصل ما وعد الله به أتاه الناس رجالا و ركبانا من مشارق الأرض و مغاربها

*قَدْ يَستدلّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ مَاشِيًا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ أفضلُ مِنَ الْحَجِّ رَاكِبًا لِأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ فَدَلَّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِهِمْ وَ قُوَّةِ هِمَمِهِمْ وَ شِدَّةِ عَزْمِهِمْ وَ الَّذِى عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّ الْحَجَّ رَاكِبًا أَفْضَلُ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ حَجَّ رَاكِبًا مَعَ كَمَالِ قُوَّتِهِ عليه السلام

*ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام مرغبا فيه فقال:–(لِّيَشۡهَدُواْ)لينالوا ببيت الله(مَنَٰفِعَ لَهُمۡ)دينية:–

من العبادات الفاضلة و العبادات التى لا تكون إلا فيه و منافع دنيوية:–

من التكسب و حصول الأرباح الدنيوية و كل هذا أمر مشاهد كل يعرفه

*وَ أَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ الْبُدْنِ وَ الرِّبْحِ وَ التِّجَارَاتِ كَقَوْلِهِ:-

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ [البقرة: 198]

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ)الأَيَّامُ الْعَشْرِ

*البخارى 969 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُ قَالَ:-

«مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ؟»قَالُوا:وَ لاَ الجِهَادُ؟قَالَ:-

«وَ لاَ الجِهَادُ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَ مَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ»

*أبي داود 1765 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«إِنَّ أَعْظَمَ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى يَوْمُ النَّحْرِ ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ»قَالَ عِيسَى قَالَ ثَوْرٌ:-وَ هُوَ الْيَوْمُ الثَّانِي

وَ قَالَ: وَقُرِّبَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺبَدَنَاتٌ خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ فَطَفِقْنَ يَزْدَلِفْنَ إِلَيْهِ بِأَيَّتِهِنَّ يَبْدَأُ

فَلَمَّا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا قَالَ: فَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ خَفِيَّةٍ لَمْ أَفْهَمْهَا فَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ قَالَ: «مَنْ شَاءَ اقْتَطَعَ»

(عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)الإِبِلَ وَ الْبَقَرَ وَ الْغَنَمَ

كَمَا فَصَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَ أَنَّهَا(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) [الْأَنْعَام: 143]

*و هذا من المنافع الدينية و الدنيوية أى:–ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكرا لله على ما رزقهم منها

و يسرها لهم فإذا ذبحتموها (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)شديد الفقر

*اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوبِ الْأَكْلِ مِنَ الْأَضَاحِيِّ وَ هُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ وَ الَّذِى عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ

مِنْ بَابِ الرُّخْصَةِ أَوِ الِاسْتِحْبَابِ كَمَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺلَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَتُطْبَخُ

فَأَكَلَ مِنْ لَحْمِهَا وَ حَسَا مِنْ مَرَقِهَا (مسلم 1218)28

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)يقضوا نسكهم و يزيلوا الوسخ و الأذى الذى لحقهم فى حال الإحرام

*هُوَ وَضْعُ الْإِحْرَامِ مِنْ حَلْقِ الرَّأْسِ وَ لُبْسِ الثِّيَابِ وَ قَصِّ الْأَظْفَارِ وَ نَحْوُ ذَلِكَ

(وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ)التى أوجبوها على أنفسهم من الحج و العمرة و الهدايا

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)القديم أفضل المساجد على الإطلاق المعتق:–من تسلط الجبابرة عليه.

و هذا أمر بالطواف خصوصا بعد الأمر بالمناسك عموما لفضله و شرفه و لكونه المقصود و ما قبله وسائل إليه.

و لعله – و الله أعلم أيضا– لفائدة أخرى و هو:–

أن الطواف مشروع كل وقت و سواء كان تابعا لنسك أم مستقلا بنفسه.

*الطَّوَافَ الْوَاجِبَ يَوْمَ النَّحْرِ.قُلْتُ: وَ هَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بَدَأَ يَرْمِي

الْجَمْرَةَ فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ ثُمَّ نَحَرَ هَدْيَهُ وَ حَلَقَ رَأْسَهُ ثُمَّ أَفَاضَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ (مسلم 1218)

*البخارى1755 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-«أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ

(آخر ما يفعلونه - في آخر وقت من أوقات مجيئهم - أن يطوفوا بالبيت طواف الوداع قبل مغادرتهم مكة إلى أوطانهم) إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ الحَائِضِ29

(ذَٰلِكَ)الذى ذكرنا لكم من تلكم الأحكام

عظم حرمات الله و شعائره و خطر الشرك و التسمية عند الذبح 30-37

(وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ)و ما فيها من تعظيم حرمات الله و إجلالها و تكريمها

و حرمات الله:–كل ما له حرمة و أمر باحترامه بعبادة أو غيرها كـ:–

المناسك كلها و كالحرم و الإحرام و كالهدايا و كالعبادات التى أمر الله العباد بالقيام بها

فتعظيمها:–1–إجلالها بالقلب و محبتها 2–و تكميل العبودية فيها غير متهاون و لا متكاسل و لا متثاقل

(فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ)لأن تعظيم حرمات الله من الأمور المحبوبة لله المقربة إليه

التى من عظَّمها و أجلَّها:–أثابه الله ثوابا جزيلا و كانت خيرا له فى دينه و دنياه و أخراه عند ربه.

(وَأُحِلَّتْ لَكُمُ)جميع(ٱلْأَنْعَٰمُ)و مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيلَةٍ وَ لَا حَامٍ.

ثم ذكر منته و إحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام من إبل و بقر و غنم و شرعها من جملة المناسك التى

يتقرب بها إليه فعظمت منته فيها من الوجهين(إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ)فى القرآن تحريمه من قوله:–

(الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ)[الْمَائِدَة: 3]

*و لكن الذى من رحمته بعباده أن حرمه عليهم و منعهم منه تزكية لهم و تطهيرا من الشرك به و قول الزور

و لهذا قال: (فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ)الخبث القذر

(مِنَ)و الظاهر أن(من)هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثير من المفسرين إنما هى للتبعيض

و أن الرجس عام فى جميع المنهيات المحرمات فيكون منهيا عنها عموما و عن الأوثان التى هى بعضها

(ٱلْأَوْثَٰنِ)الأنداد التى جعلتموها آلهة مع الله فإنها أكبر أنواع الرجس خصوصا:–

(وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ)أى:جميع الأقوال المحرمات فإنها من قول الزور الذى هو الكذب

و من ذلك شهادة الزور فلما نهاهم عن الشرك و الرجس و قول الزور.

*مِنْ" هَاهُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ أَيِ: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِى هُوَ الْأَوْثَانُ.

وَ قَرَنَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ بِقَوْلِ الزُّورِ كَقَوْلِهِ:-(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[الْأَعْرَاف: 33]وَ مِنْهُ شَهَادَةُ الزُّورِ.

*البخارى2654-عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺقَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ(أخبركم)بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟

(أشنعها أكثرها إثما)ثَلاَثًا(كرر الجملة ثلاث مرات)قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:-

«الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ–وَ جَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ- أَلاَ وَ قَوْلُ الزُّورِ»قَالَ:-

فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ(٣٠)

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾
۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

أمرهم أن يكونوا(حُنَفَآءَ لِلَّهِ)مقبلين عليه و على عبادته معرضين عما سواه.

(غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ)فمثله(فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ)أي: سقط منها

(فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ)بسرعة(أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ)بعيد

*كذلك المشرك فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة. و من ترك الإيمان:-

بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات و البليات فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء

*كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان:-

تخطفته الشياطين من كل جانب و مزقوه و أذهبوا عليه دينه و دنياه.

*أحمد 18534 -قال النبي ﷺ:- وَ إِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا و إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ و غَضَبٍ "قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ
فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ و يَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا:-مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-(لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) [الأعراف: 40]فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا"ثُمَّ قَرَأَ:-(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)[الحج: 31]فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ٣١

(ذَٰلِكَ)الذى ذكرنا لكم(وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ)أَوَامِرَ

(ٱللَّهِ)ذلك من تعظيم حرماته و شعائره أعلام الدين الظاهرة و منها المناسك كلها كما قال تعالى:-

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)و منها الهدايا و القربان للبيت

و تقدم أن معنى تعظيمها إجلالها و القيام بها و تكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد و منها الهدايا فتعظيمها باستحسانها و استسمانها و أن تكون مكملة من كل وجه

(فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ)وَ مِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْهَدَايَا وَ الْبُدْنِ

*البخارى معلقا:وَ قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ بْنَ سَهْلٍ قَالَ:-
«كُنَّا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ وَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ»

*البخارى 5554 - عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺانْكَفَأَ إِلَى كَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ فَذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ»

*أبي داود 2802 عَنْ عُبَيْدِ بْنِ فَيْرُوزَ قَالَ:سَأَلْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رضي الله عنه مَا لَا يَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ.
فَقَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَ أَصَابِعِي أَقْصَرُ مِنْ أَصَابِعِهِ وَ أَنَامِلِي أَقْصَرُ مِنْ أَنَامِلِهِ
فَقَالَ:أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ - فَقَالَ:-الْعَوْرَاءُ بَيِّنٌ عَوَرُهَا وَ الْمَرِيضَةُ بَيِّنٌ مَرَضُهَا
وَ الْعَرْجَاءُ بَيِّنٌ ظَلْعُهَاوَ الْكَسِيرُ الَّتِي لَا تَنْقَى ".قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ فِي السِّنِّ نَقْصٌ.
قَالَ:«مَا كَرِهْتَ فَدَعْهُ وَ لَا تُحَرِّمْهُ عَلَى أَحَدٍ» قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «لَيْسَ لَهَا مُخٌّ»

*البخارى1690 -عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺرَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً فَقَالَ:-«ارْكَبْهَا»
قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ قَالَ: «ارْكَبْهَا» قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ قَالَ: «ارْكَبْهَا» ثَلَاثًا

*مسلم(1324)عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهسُئِلَ عَنْ رُكُوبِ الْهَدْيِ فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ
يَقُولُ: «ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا حَتَّى تَجِدَ ظَهْرًا»(أى مركبا)

*فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب فالمعظم لها يبرهن على تقواه و صحة إيمانه لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله و إجلاله ٣٢

مسلمٌ جديدٌ يُعظم شعائر الله

حدث الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بعد إحدى زياراته إلى كندا قائلا:

رأيتُ في المركز الإسلاميّ بـ(مونتريال) شابًا قد أسلم حديثًا، ويصلي جميع الصلوات جماعةً في المركز الإسلاميّ، وقد أخبرني إمامُ المسجد أن هذا الشاب منذ

أن دخل في الإسلام وهو لا يترك فرضًا من الفروض مع الجماعة بهذا المركز صيفًا ولا شتاءً، حتى في شهور الثلوج والبرد الشديد، وأنه يقطع في سبيل ذلك طريقًا يستغرق منه كل مرة حوالي نصف ساعة.

يقول الدكتور جعفر : فكلمتُ ذلك الشاب لأقنعه بأنه في ذلك يشق على نفسه.

فقال لي: يا شيخ؛ أمَا قرأتَ قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [1]، والمساجد من شعائر الله، فأنا أريد أن أعظم شعائر الله تعالى. قال الشيخ : فوالله لقد انقطعت حجتي، وسكت!

(لَكُمْ فِيهَا)أى:–فى الهدايا(مَنَٰفِعُ)هذا فى الهدايا المسوقة من البدن و نحوها ينتفع بها أربابها بالركوب و الحلب و نحو ذلك مما لا يضرها

(إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى)مقدر موقت و هو ذبحها إذا وصلت

(ثُمَّ مَحِلُّهَآ)حيث يحِل نحرها (ليس المراد مكانها بفتح الحاء)و هو

(إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ)أى:–الحرم كله «منى»و غيرها فإذا ذبحت أكلوا منها و أهدوا و أطعموا البائس الفقير

***كَمَا قَالَ تَعَالَى:(هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ)[الْمَائِدَة: 95] وَ قَالَ(وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) [الْفَتْح: 25] ﴿٣٣﴾**

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ)من الأمم السالفة(جَعَلْنَا مَنسَكًا)عِيدًا و قيل ذبحا

***أى:فاستبقوا إلى الخيرات و تسارعوا إليها و لننظر أيكم أحسن عملا و الحكمة فى جعل الله لكل أمة منسكا لإقامة ذكره و الالتفات لشكره و لهذا قال:–**

(لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ)

كَمَا ثَبَتَ فى البخارى 5558 - عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ:-

«ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ فَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا(جمع صفحة وهي جانب العنق و صفحة كل شيء جانبه**)يُسَمِّى وَ يُكَبِّرُ فَذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ»**

(فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ)و إن اختلفت أجناس الشرائع فكلها متفقة على هذا الأصل و هو ألوهية الله و إفراده بالعبودية و ترك الشرك به(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي 4 إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[الْأَنْبِيَاء: 25]

و لهذا قال:(فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟)انقادوا و استسلموا له لا لغيره فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام.

(وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ)بخير الدنيا و الآخرة

و المخبت: الخاضع لربه المستسلم لأمره المتواضع لعباده﴿٣٤﴾ ثم ذكر صفات المخبتين فقال:–

(ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)خوفا و تعظيما فتركوا لذلك المحرمات لخوفهم و وجلهم من الله وحده

(وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ)من البأساء و الضراء و أنواع الأذى

فلا يجرى منهم التسخط لشيء من ذلك بل صبروا ابتغاء وجه ربهم محتسبين ثوابه مرتقبين أجره

(وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ)

الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة بأن أدوا اللازم فيها و المستحب و عبوديتها الظاهرة و الباطنة

(وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ)و هذا يشمل جميع النفقات الواجبة كالزكاة و الكفارة و النفقة على الزوجات و المماليك و الأقارب و النفقات المستحبة كالصدقات بجميع وجوهها

و أتى بـــ(من)المفيدة للتبعيض ليعلم سهولة ما أمر الله به و رغب فيه و أنه جزء يسير مما رزق الله ليس للعبد في تحصيله قدرة لولا تيسير الله له و رزقه إياه.

فيا أيها المرزوق من فضل الله أنفق مما رزقك الله ينفق الله عليك و يزدك من فضله ﴿٣٥﴾

(وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ)

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْبُدْنِ وَ جَعَلَهَا مِنْ شَعَائِرِهِ وَ هُوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا تُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ بَلْ هِيَ أَفْضَلُ مَا يُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا)[الْمَائِدَة: 2]

هذا دليل على أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة.

و تقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره فإن ذلك من تقوى القلوب و هنا أخبر أن من جملة شعائره البدن أى: الإبل و البقر على أحد القولين فتعظم و تستسمن و تستحسن

(لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ)المهدى و غيره من الأكل و الصدقة و الانتفاع و الثواب

(فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا)عند ذبحها قولوا « بسم الله » و اذبحوها

(صَوَآفَّۖ)قائمات بأن تقام على قوائمها الأربع ثم تعقل يدها اليسرى ثم تنحر.

*يَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ وَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُمَّ مِنْكَ وَ لَكَ".

*البخارى1713-عَنْ زِيَادِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ:رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ يَنْحَرُهَا قَالَ: «ابْعَثْهَا(أثرها حتى تقوم)قِيَامًا(قائمة) مُقَيَّدَةً (معقولة اليد اليسرى مربوطة بالعقال و هو الحبل)سُنَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ»

* مسلم 1218- ثُمَّ انْصَرَفَ (أى النبي ﷺ)إِلَى الْمَنْحَرِ فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَ سِتِّينَ بِيَدِهِ

(فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا)سقطت في الأرض جنوبها حين تسلخ ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض

فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها(ليس المراد الوجوب بمعنى الإلزام)

*مسلم(1955) عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ:-ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ(بكسر القاف و هى الهيئة و الحالة) وَ إِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَ لْيُحِدَّ(يقال أحد السكين وحددها واستحدها بمعنى شحذها)أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»

بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك و يستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة و أن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى و لا يجرها إلى مذبحها]

(فَكُلُواْ مِنۡهَا)و هذا خطاب للمهدى فيجوز له الأكل من هديه

(وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ)الْمُسْتَغْنِى بِمَا أَعْطَيْتَهُ وَ هُوَ فِي بَيْتِهِ(الفقير الذى لا يسأل تقنعا و تعففا)

(وَٱلۡمُعۡتَرَّ)الَّذِى يَتَعَرَّضُ لَكَ و يسألك و يُلِمّ بِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَ لَا يَسْأَلُ. فكل منهما له حق فيهما.

*البخارى5545 - عَنِ البَرَاءِ ﷺقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-«إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا وَ مَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ» فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ وَ قَدْ ذَبَحَ فَقَالَ:-إِنَّ عِنْدِى جَذَعَةً فَقَالَ: «اذْبَحْهَا وَ لَنْ تَجْزِىَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» قَالَ مُطَرِّفٌ: عَنْ عَامِرٍ عَنِ البَرَاءِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-«مَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ تَمَّ نُسُكُهُ وَ أَصَابَ سُنَّةَ المُسْلِمِينَ»

(كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا)ذَلَّلْنَاهَا(لَكُمۡ)أى:البدن أَىْ:جَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ وَ إِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ وَ إِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ71 وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ72 وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) [يس]

(لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)الله على تسخيرها فإنه لولا تسخيره لها لم يكن لكم بها طاقة و لكنه ذللها لكم و سخرها رحمة بكم و إحسانا إليكم فاحمدوه(٣٦)

(لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا)أى:–ليس المقصود منها ذبحها فقط.

و لا ينال الله من لحومها و لا دمائها شيء لكونه الغنى الحميد و إنما يناله الإخلاص فيها و الاحتساب و النية الصالحة و لهذا قال:–

(وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ)ففى هذا :–

حث و ترغيب على الإخلاص فى النحر و أن يكون القصد وجه الله وحده:–

لا فخرا و لا رياء و لا سمعة و لا مجرد عادة

و هكذا سائر العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص و تقوى الله كانت كالقشور الذى لا لب فيه و الجسد الذى لا روح فيه

(كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ)تعظموا و تجلوا (ٱللَّهَ)

(عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ)أى: مقابلة لهدايته إياكم فإنه يستحق أكمل الثناء و أجل الحمد و أعلى التعظيم

(وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)بعبادة الله بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه

فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم و رؤيته إياهم و المحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان من نفع مال أو علم أو جاه أو نصح أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو كلمة طيبة و نحو ذلك

فالمحسنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا و الآخرة و سيحسن الله إليهم كما أحسنوا فى عبادته و لعباده

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)(٣٧)

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)هذا إخبار و وعد و بشارة من الله للذين آمنوا:–أن الله يدافع عنهم كل مكروه و يدفع عنهم كل شر –بسبب إيمانهم–من:–

دفاع الله عن المؤمنين و نصرهم و صفاتهم و مشروعية القتال 38-41

1–شر الكفار

2–و شر وسوسة الشيطان

3–و شرور أنفسهم و سيئات أعمالهم

4–و يحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون فيخفف عنهم غاية التخفيف.

*كل مؤمن له من هذه المدافعة و الفضيلة بحسب إيمانه فمستقل و مستكثر.

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَ أَنَابُوا إِلَيْهِ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَ كَيْدَ الْفُجَّارِ وَ يَحْفَظُهُمْ وَ يَكْلَؤُهُمْ وَ يَنْصُرُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) [الزُّمَر: 36]

وَ قَالَ:(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)[الطَّلَاقِ: 3]

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ)خائن فى أمانته التى حمله الله إياها فيبخس حقوق الله عليه و يخونها و يخون الخلق.

(كَفُورٍ)لنعم الله يوالى عليه الإحسان و يتوالى منه الكفر و العصيان

فهذا لا يحبه الله بل يبغضه و يمقته و سيجازيه على كفره و خيانته

و مفهوم الآية أن :–

الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه(٣٨)

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار و مأمورين بالصبر عليهم لحكمة إلهية فلما هاجروا إلى المدينة و أوذوا و حصل لهم منعة و قوة أذن لهم بالقتال قال تعالى:–

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول: أحمد 1865 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ:-أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ لَيَهْلِكُنَّ فَنَزَلَتْ:-

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[الحج: 39] قَالَ:-فَعُرِفَ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:- هِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ

*يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون و إنما أذن لهم لأنهم ظلموا بمنعهم من دينهم و أذيتهم عليه و إخراجهم من ديارهم.

(وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ)فليستنصروه و ليستعينوا به ﴿٣٩﴾

ثم ذكر صفة ظلمهم فقال:–

(ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم)أى: ألجئوا إلى الخروج بالأذية و الفتنة

(بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ)أن ذنبهم الذى نقم منهم أعداؤهم(إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ)

أى:إلا أنهم وحدوا الله و عبدوه مخلصين له الدين فإن كان هذا ذنبا فهو ذنبهم كقوله تعالى:–

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[البروج:8]

و هذا يدل على حكمة الجهاد:–

1–و أن المقصود منه إقامة دين الله

2–و ذب الكفار المؤذين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم و اعتدائهم و التمكن من عبادة الله

3–و إقامة الشرائع الظاهرة

و لهذا قال:–(وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ)فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين

(لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ)الرهبان(وَبِيَعٌ)النصارى(وَصَلَوَٰتٌ)اليهود و ه ى كنائسهم

(وَمَسَٰجِدُ)الْمُسْلِمِينَ الَّتِى يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ.

*أى: لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب معابد اليهود و النصارى و المساجد للمسلمين

(يُذْكَرُ فِيهَا)أى: فى هذه المعابد(ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً)

تقام فيها الصلوات و تتلى فيها كتب الله و يذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر

فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخربوا معابدهم و فتنوهم عن دينهم

فدل هذا:–

1–أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل و المؤذى و مقصود لغيره

2–و دل ذلك على أن البلدان التى حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله و عمرت مساجدها و أقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين و ببركتهم دفع الله عنها الكافرين قال الله تعالى:–

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب مع أنها كثير منها إمارة صغيرة و حكومة غير منظمة مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج بل نرى المساجد التى تحت ولايتهم و سيطرتهم عامرة و أهلها آمنون مطمئنون مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها و الله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه المعابد و نحن لا نشاهد دفعا

⇦أجيب بأن هذا السؤال و الاستشكال داخل فى عموم هذه الآية و فرد من أفرادها فإن من عرف أحوال الدول الآن و نظامها و أنها تعتبر كل أمة و جنس تحت ولايتها و داخل فى حكمها تعتبره عضوا من أعضاء المملكة و جزء من أجزاء الحكومة سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعددها أو عددها أو مالها أو عملها أو خدمتها

فتراعى الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية و الدنيوية و تخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها و تفقد بعض أركانها فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم خصوصا المساجد

فإنها – و لله الحمد– فى غاية الانتظام حتى في عواصم الدول الكبار.

و تراعى تلك الدول الحكومات المستقلة نظرا لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد و التباغض بين دول النصارى الذى أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة فتبقى الحكومة المسلمة التى لا تقدر تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم لقيام الحسد عندهم فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها خوفا من احتمائها بالآخر مع أن الله تعالى لا بد أن يرى عباده من نصر الإسلام و المسلمين ما قد وعد به فى كتابه.

و قد ظهرت—و لله الحمد—أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم و الشعور مبدأ العمل فنحمده و نسأله أن يتم نعمته و لهذا قال فى وعده الصادق المطابق للواقع:—

(وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ)أى: يقوم بنصر دينه مخلصا له فى ذلك يقاتل فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا كَقَوْلِهِ{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ7 وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}[مُحَمَّدٍ]

(إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ)كامل القوة (عَزِيزٌ)لا يرام قد قهر الخلائق و أخذ بنواصيهم فأبشروا يا معشر المسلمين فإنكم و إن ضعف عددكم و عددكم و قوى عدد عدوكم و عدتهم فإن ركنكم القوى العزيز و معتمدكم على من خلقكم و خلق ما تعملون فاعملوا بالأسباب المأمور بهاثم اطلبوا منه نصركم فلا بد أن ينصركم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

و قوموا أيها المسلمون بحق الإيمان و العمل الصالح فقد(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

*قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ171 إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ172 وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[الصَّافَّاتِ]

وَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الْمُجَادَلَةِ: 21] ﴿٤٠﴾

*ثم ذكر علامة من ينصره و بها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله و ينصر دينه ولم يتصف بهذا الوصف فهو كاذب فقال:—(ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ)ملكناهم إياها و جعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم و لا معارض

(أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)فى أوقاتها و حدودها و أركانها و شروطها فى الجمعة و الجماعات.

(وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ)التى عليهم خصوصا و على رعيتهم عموما آتوها أهلها الذين هم أهلها

(وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ)و هذا يشمل كل معروف حسنه شرعا و عقلا من حقوق الله و حقوق الآدميين

(وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ)كل منكر شرعا و عقلا معروف قبحه و الأمر بالشىء و النهى عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به فإذا كان المعروف و المنكر يتوقف على تعلم و تعليم أجبروا الناس على التعلم و التعليم

و إذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعا أو غير مقدر كأنواع التعزير قاموا بذلك

و إذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له لزم ذلك و نحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر إلا به.

*وَ قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ:-

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}[النُّورِ: 55]

(وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ)كَقَوْلِهِ{وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[الْقَصَصِ: 83]

وَ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ:{وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ}و عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ مَا صَنَعُوا.

*أى:جميع الأمور ترجع إلى الله و قد أخبر أن العاقبة للتقوى فمن سلطه الله على العباد من الملوك و قام بأمر الله كانت له العاقبة الحميدة و الحالة الرشيدة

*و من تسلط عليهم بالجبروت و أقام فيهم هوى نفسه فإنه و إن حصل له ملك موقت فإن عاقبته غير حميدة فولايته مشئومة و عاقبته مذمومة(٤١)

*يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ)يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب و ليسوا بأول أمة كذبت رسولها

(فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ (٤٣) وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ)أى:-قوم شعيب

(وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ)أنظرت و أخرت

(لِلۡكَٰفِرِينَ)المكذبين فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم حتى استمروا فى طغيانهم يعمهون و فى كفرهم و شرهم يزدادون

هلاك الأمم السابقة لتكذيبهم الرسل 42-48

(ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡ)بالعذاب أخذ عزيز مقتدر

(فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ)أى:إنكارى عليهم كفرهم و تكذيبهم كيف حاله كان أشد العقوبات و أفظع المثلات فمنهم من أغرقه و منهم من أخذته الصيحة و منهم من أهلك بالريح العقيم و منهم من خسف به الأرض و منهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة

فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم ليسوا خيرا منهم و لا كتب لهم براءة فى الكتب المنزلة من الله و كم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير (٤٤)

و لهذا قال:-(فَكَأَيِّن)كم(مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا)بالعذاب الشديد و الخزى الدنيوى

(وَهِيَ ظَالِمَةٞ)بكفرها بالله و تكذيبها لرسله لم يكن عقوبتنا لها ظلما منا

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ)فديارهم متهدمة قصورها و جدرانها قد سقطت(عَلَىٰ عُرُوشِهَا)سقوفها فأصبحت خرابا بعد أن كانت عامرة و موحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة

(وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ)لَا يُسْتَقَى مِنْهَا وَ لَا يَرِدُها أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَ الِازْدِحَامِ عَلَيْهَا.

(وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ)المُبَيّض بِالْجِصِّ_المُنِيف الْمُرْتَفِعُ_الشَّدِيدُ الْمَنِيعُ الْحَصِينُ.
فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِ أَهْلَهُ شِدَّةُ بِنَائِهِ وَ لَا ارْتِفَاعُهُ وَ لَا إِحْكَامُهُ وَ لَا حَصَانَتُهُ عَنْ حُلُولِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النِّسَاءِ: 78]

*و كم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم و شرب مواشيهم ففقد أهله و عُدِم منه الوارد و الصادر

*و كم من قصر تعب عليه أهله فشيدوه و رفعوه و حصنوه و زخرفوه فحين جاءهم أمر الله لم يغن عنهم شيئا

و أصبح خاليا من أهله قد صاروا عبرة لمن اعتبر و مثالا لمن فكر و نظر﴿٤٥﴾

و لهذا دعا الله عباده إلى السير فى الأرض لينظروا و يعتبروا فقال:-

(أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)بأبدانهم و قلوبهم

(فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ)آيات الله و يتأملون بها مواقع عبره

(أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ)أخبار الأمم الماضين و أنباء القرون المعذبين

و إلا فمجرد نظر العين و سماع الأذن و سير البدن الخالى من التفكر و الاعتبار غير مفيد و لا موصل إلى المطلوب و لهذا قال:-

(فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ)

أى: هذا العمى الضار فى الدين عمى القلب عن الحق حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات

و أما عمى البصر فغايته بلغة و منفعة دنيوية.
*لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ وَ إِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ وَ إِنْ كَانتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَى الْعِبَرِوَ لَا تَدْرِى مَا الْخَبَرُ﴿٤٦﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ)يستعجلك هؤلاء المكذبون(بِالْعَذَابِ)لجهلهم و ظلمهم و عنادهم و تعجيزا لله و تكذيبا لرسله كَمَا قَالَ اللَّهُ(وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[الْأَنْفَالِ: 32] (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}[ص: 16]

(وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)فما وعدهم به من العذاب لا بد من وقوعه و لا يمنعهم منه مانع

*و أما عجلته و المبادرة فيه فليس ذلك إليك يا محمد و لا يستفزنك عجلتهم و تعجيزهم إيانا

فإن أمامهم يوم القيامة الذى يجمع فيه أولهم و آخرهم و يجازون بأعمالهم و يقع بهم العذاب الدائم الأليم

و لهذا قال:–(وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)من طوله و شدته و هو له

فسواء أصابهم عذاب فى الدنيا أم تأخر عنهم العذاب فإن هذا اليوم لا بد أن يدركهم.

*و يحتمل أن المراد: أن الله حليم و لو استعجلوا العذاب فإن يوما عنده كألف سنة مما تعدون

فالمدة و إن تطاولتموها و استبطأتم فيها نزول العذاب فإن الله يمهل المدد الطويلة و لا يهمل حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم .سرعة الضوء فى القرآن الرابط﴿٤٧﴾

(وَكَأَيِّن)كم(مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ)أمهلت(لَهَا)مدة طويلة(وَهِيَ ظَالِمَةٌ)مع ظلمهم فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجبا لمبادرتنا بالعقوبة

(ثُمَّ أَخَذْتُهَا)بالعذاب(وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)مع عذابها فى الدنيا سترجع إلى الله فيعذبها بذنوبها

فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله و لا يغتروا بالإمهال﴿٤٨﴾

﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٌ﴾يأمر تعالى عبده و رسوله محمدا ﷺأن يخاطب الناس جميعا بأنه رسول الله حقا مبشرا للمؤمنين بثواب الله منذرا للكافرين و الظالمين من عقابه

﴿مُّبِينٌ ﴾بين الإنذار و هو التخويف مع الإعلام بالمخوف و ذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به ﴿٤٩﴾

مهمة النبى و عاقبة المؤمن و الكافر 49-51

ثم ذكر تفصيل النذارة و البشارة فقال:–

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾بقلوبهم إيمانا صحيحا صادقا

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾بجوارحهم فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أى:–الجنات التى يتنعم بها بأنواع النعيم من المآكل و المشارب و المناكح و الصور و الأصوات و التنعم برؤية الرب الكريم و سماع كلامه

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾لِمَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ مُجَازَاةٌ حَسَنَةٌ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ﴿وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ ﴾﴿٥٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ﴾كفروا و جحدوا نعمة ربهم و كذبوا رسله و آياته

و ﴿سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا﴾يُثَبِّطون النَّاسَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ﴿مُعَـٰجِزِينَ ﴾مُرَاغِمِينَ_مشاقين مغالبين

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ﴾الملازمون فى﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾هى:-النَّارُ الْحَارَّةُ الْمُوجِعَةُ الشَّدِيدُ عَذَابُهَا فلا يخفف عنهم من عذابها و لا يفتر عنهم لحظة من عقابها ﴿٥١﴾

موقف الشيطان مع الانبياء و تفرق الناس بسببه 52-57

يخبر تعالى بحكمته البالغة و اختياره لعباده:–﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾يا محمد

﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾أى: قرأ قراءته التى يذكر بها الناس و يأمرهم و ينهاهم

﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَـٰنُ ﴾الوساوس﴿فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾قراءته من طرقه و مكايده ما هو مناقض لتلك القراءة

مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله و حفظ وحيه أن يشتبه أو يختلط بغيره.

و لكن هذا الإلقاء من الشيطان غير مستقر و لا مستمر و إنما هو عارض يعرض ثم يزول و للعوارض أحكام

(ليس التمنى هنا الذى هو طلب حصول الشيء بعيد الوقوع)و لهذا قال:–

﴿فَيَنسَخُ ﴾يزيله و يذهبه و يبطله﴿ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾و يبين أنه ليس من آياته

*حَقِيقَةُ النَّسْخِ لُغَةً:-الْإِزَالَةُ وَ الرَّفْعُ

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ﴾يتقن و يحرر و يحفظ﴿ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦۗ ﴾فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾أَيْ:-بِمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ وَ الْحَوَادِثِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ

*كامل القوة و الاقتدار فبكمال قوته يحفظ وحيه و يزيل ما تلقيه الشياطين

(حَكِيمٌ)يضع الأشياء مواضعها﴿٥٢﴾

*فمن كمال حكمته مكن الشياطين من الإلقاء المذكور ليحصل ما ذكره بقوله:-

(لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً)لطائفتين من الناس لا يبالى الله بهم و هم

(لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)الْمُنَافِقُونَ أى: ضعف و عدم إيمان تام و تصديق جازم فيؤثر فى قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان داخلهم الريب و الشك فصار فتنة لهم.

(وَٱلۡقَاسِيَةِ)الغليظة(قُلُوبُهُمۡۗ)الْمُشْرِكُونَ التى لا يؤثر فيها زجر و لا تذكير و لا تفهم عن الله و عن رسوله لقسوتها فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم على باطلهم و جادلوا به و شاقوا الله و رسوله

و لهذا قال:(وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ)فى عداوة شديدة لله و رسوله و خلافٍ للحق بعيد عن الصواب.

أى: مشاقة لله و معاندة للحق و مخالفة له بعيد من الصواب فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها ﴿٥٣﴾

و أما الطائفة الثالثة فإنه يكون رحمة فى حقها و هم المذكورون بقوله:-

(وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ)

لأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل و الرشد من الغى فيميزون بين الأمرين:-

1-الحق المستقر الذى يحكمه الله

2-و الباطل العارض الذى ينسخه الله بما على كل منهما من الشواهد

و ليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة و الشريرة

(فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ)بسبب ذلك و يزداد إيمانهم عند دفع المعارض و الشبه.

(فَتُخۡبِتَ)تخشع و تخضع و تسلم(لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ)لحكمته و هذا من هدايته إياهم

(وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)بسبب إيمانهم(إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)

علم بالحق و عمل بمقتضاه فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا و فى الآخرة و هذا النوع من تثبيت الله لعبده.

و هذه الآيات فيها بيان أن للرسول ﷺأسوة بإخوانه المرسلين

لما وقع منه عند قراءته ﷺ:-(والنجم)فلما بلغ(أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)

ألقى الشيطان فى قراءته:-« تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى »

فحصل بذلك للرسول حزن و للناس فتنة كما ذكر الله فأنزل الله هذه الآيات راجع الرابط﴿٥٤﴾

(وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ)يخبر تعالى عن حالة الكفار و أنهم لا يزالون فى شك مما جئتهم به يا محمد لعنادهم و إعراضهم و أنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال

(حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً)مفاجأة

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)أى: لا خير فيه و هو يوم القيامة

فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين و ندموا حيث لا ينفعهم الندم و أبلسوا و أيسوا من كل خير و ودوا لو آمنوا بالرسول و اتخذوا معه سبيلا

ففى هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم و فريتهم(٥٥)

الرد على قصة الغرانيق

تفسير سورة النجم

س: جاء في [مختصر سيرة الرسول] ﷺهذا النص:-(ومما وقع أيضًا قصته ﷺمعهم لما قرأ سورة النجم بحضرتهم فلما وصل إلى قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى 19 وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)

ألقى الشيطان في تلاوته: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى و ظنوا أن النبى ﷺقاله ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا)فهل هذه الرواية صحيحة؟ وعلى فرض صحتها هل للشيطان سلطة أن يلقى فى تلاوته تلك الكلمات التي مر ذكرها؟أرجو إفادتي مع جزيل الشكر.

ج: قصة الغرانيق ذكرها كثير من علماء التفسير عند تفسيرهم قوله تعالى:-

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

الآيات من سورة الحج

و عند تفسيرهم قوله تعالى:(أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى 19 وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)الآيات من سورة النجم

و رووها من طرق عدة بألفاظ مختلفة غير أنها كلها رويت من طرق مرسلة و لم ترد مسندة من طرق صحيحة كما قال ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره

فإنه لما ساق هذه القصة بطرقها قال بعدها:(و كلها مرسلات و منقطعات). اهـ.

و قال ابن خزيمة :-إن هذه القصة من وضع الزنادقة اهـ.

و استنكرها أيضًا أبو بكر بن العربى و القاضى عياض و آخرون سندًا و متنًا

أما السند فبما تقدم و أما المتن فبما ذكره ابن العربى من أن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى رسوله خلق فيه العلم بأن من يوحى إليه هو الملك فلا يمكن أن يلقي الشيطان على لسانه شيئًا يلتبس عليه فيتلوه على أنه قرآن و للإجماع على عصمة الرسول ﷺ من الشرك فيمتنع أن يتكلم بكلمة:-

(تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى)سهوًا أو ظنًّا منه أنها قرآن و لأنه يستحيل أن يؤثر الرسول ﷺ صلة قومه و رضاهم على صلة ربه و رضاه فيتمنى ألا ينزل الله عليه ما يغضب قومه حرصًا منه على رضاهم
ثم ما استدل به على ثبوت القصة من قوله تعالى:(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
لا يدل على صحتها بل يدل على براءة النبى ﷺمما نسب إليه من تلاوة هذه الكلمة الشركية لأنها تفيد النفى لا الإثبات و لأنها تفيد أن الشيطان ألقى فى أمنيته:–أى تلاوته و ليس فيها أن الشيطان ألقى على لسانه تلك الكلمات الشركية أو ألقاها فى نفسه فتلاها أو قرأها أو تكلم بها سهوًا أو غلطًا أو قصدًا حتى جاء جبريل وأنكر عليه وأصلح له ما أخطأ فيه و أسف ﷺ أسفًا شديدًا على ما فرط منه
و لم يثبت أن الآية نزلت تسلية للرسول ﷺ فيما أصيب به مما ذكر في هذه القصة حتى يكون مساعدًا على تأويلها بما جاء فيها من المنكرات.و قد وافق جمهور أهل السنة ابن العربي فيما ذكره
و ذكروا أن معنى الآية:و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلاَّ إذا تلا ما أنزلنا عليه من الوحى أو تكلم به ألقى شيطان الإنس أو الجن أثناء تلاوته أو خلال حديثه و كلامه قولاً يتكلم به الشيطان و يسمعه الحاضرون أو يوسوس الشيطان وساوس يلقيها فى نفوس الكفار و مرضى القلوب من المنافقين
فيحسبها أولئك من الوحى و ليست منه فيبطل الله ما ألقى الشيطان من القول أو الشبه والوسوسة و يزيله و يحق الحق بكلماته لكمال علمه و بالغ حكمته و هذه سنة الله مع رسله و أنبيائه و أعدائه و أعدائهم ليتم معنى الابتلاء و الامتحان و يميز الخبيث من الطيب ليهلك من هلك بما ألقى الشيطان من الكفار و مرضى القلوب يحيى من حى عن بينة من أهل العلم و اليقين الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان و هدوا إلى صراط مستقيم.و مما تقدم يتبين أن روايات قصة الغرانيق ليست صحيحة
و أنه ليس للشيطان سلطان أن يلقى على لسان النبى ﷺ شيئًا من الباطل فيتلوه أو يتكلم به
و ربما ألقى الشيطان قولاً أثناء تلاوة النبى ﷺ يتكلم به الشيطان و يسمعه الحاضرون أو يوسوس الشيطان وساوس يلقيها في نفوس الكفار و مرضى القلوب من المنافقين فيحسبها أولئك من الوحى و ليست منه فيبطل الله ذلك القول الشيطانى و يزيل الشبه و يحكم آياته
و يتبين أيضًا أن ما قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هو قول جمهور العلماء من أن الشيطان ألقى قولاً أو وسوسةً أثناء التلاوة و لكنها ليست على لسان النبى ﷺ و لا فى نفسه و لا فى نفس من صدق فى إيمانه به إنما ذلكم إلقاء من الشيطان أثناء التلاوة في أسماع الكفار أو حديث نفس وقع فى أسماعهم وقلوبهم فحسبوه قرآنًا متلوًّا و تأبى حكمة الله إلاَّ أن يزيل الباطل و يحكم آياته إحقاقًا للحق و رحمةً بالعباد والله عليم حكيم و قد أجمع علماء الإسلام كلهم على عصمة الرسل جميعًا فى كل ما يبلغونه عن الله عز وجل

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

(ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ)أى:-يوم القيامة(لِّلَّهِ)تعالى لا لغيره كَقَوْلِهِ{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الْفَاتِحَة: 4]

وَ قَوْلُهُ: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}[الْفُرْقَان: 26]

(يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ)بحكمه العدل و قضائه الفصل

(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بالله و رسله و ما جاءوا به(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)ليصدقوا بذلك إيمانهم

(فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)نعيم القلب و الروح و البدن مما لا يصفه الواصفون و لا تدركه العقول﴿٥٦﴾

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)بالله و رسله(وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا)الهادية للحق و الصواب فأعرضوا عنها أو عاندوها

(فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ)

لهم من شدته و ألمه و بلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله و آياته أهانهم الله بالعذاب.

*كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غَافِرٍ: 60] أَيْ: صَاغِرِينَ﴿٥٧﴾

جزاء المهاجرين فى سبيل الله 58-60

(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ)

هذه بشارة كبرى لمن هاجر فى سبيل الله فخرج من داره و وطنه و أولاده و ماله ابتغاء وجه الله و نصرة لدين الله فهذا قد وجب أجره على الله سواء مات على فراشه أو قتل مجاهدا في سبيل الله

*حَتْفَ أَنْفِهِمْ أَيْ:-مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ عَلَى فُرُشِهِمْ فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[النِّسَاءِ: 100]

(لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ)فى البرزخ و فى يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح و الريحان

و الحسن و الإحسان و نعيم القلب و البدن

*و يحتمل أن المعنى أن المهاجر في سبيل الله قد تكفل برزقه في الدنيا رزقا واسعا حسنا سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه أو يقتل شهيدا فكلهم مضمون له الرزق فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره و أمواله سيفتقر و يحتاج(وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ)فإن رازقه هو خير الرازقين

*و قد وقع كما أخبر فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم و أبناءهم و أموالهم نصرة لدين الله فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى فتح الله عليهم البلاد و مكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس(٥٨)

و يكون على هذا القول قوله:-(لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ)

إما ما يفتحه الله عليهم من البلدان خصوصا فتح مكة المشرفة فإنهم دخلوها في حالة الرضا و السرور

*و إما المراد به رزق الآخرة و أن ذلك دخول الجنة فتكون الآية جمعت بين الرزقين رزق الدنيا و رزق الآخرة و اللفظ صالح لذلك كله و المعنى صحيح فلا مانع من إرادة الجميع

(وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ)بالأمور ظاهرها و باطنها متقدمها و متأخرها

(حَلِيمٞ)يعصيه الخلائق و يبارزونه بالعظائم و هو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره بل يواصل لهم رزقه و يسدى إليهم فضله.

*يَحْلُمُ وَ يَصْفَحُ وَ يَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ وَ يُكَفِّرُهَا عَنْهُمْ بِهِجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ وَ تَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ.
فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَإِنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يُرْزَقُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-
{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[آلِ عِمْرَانَ: 169]
*وَ أَمَّا من تُوُفِّي فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ وَ عَظِيمِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ.
*مسلم (1913)عَنْ شُرَحْبِيلَ بْنِ السِّمْطِ(يقال بفتح السين وكسر الميم ويقال بكسر السين وإسكان الميم)عَنْ سَلْمَانَ قَالَ:-
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:-«رِبَاطُ(أصل الرباط ما تربط به الخيل ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عمن خلفه رباط)يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَ قِيَامِهِ وَ إِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَ أُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَ أَمِنَ الْفَتَّانَ»
(ضبطوا أمن بوجهين أحدهما أمن بفتح الهمزة و كسر الميم من غير واو و الثاني أومن بضم الهمزة وبواو و أما الفتان فقال القاضي رواية الأكثرين بضم الفاء جمع فاتن قال ورواية الطبري بالفتح)(٥٩)

(ذَٰلِكَ)الأمر الذى قصصنا عليك من إدخال المهاجرين الجنة

(وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ)

بأن من جنى عليه و ظلم فإنه يجوز له مقابلة الجانى بمثل جنايته فإن فعل ذلك فليس عليه سبيل و ليس بملوم فإن بغي عليه بعد هذا فإن الله ينصره لأنه مظلوم فلا يجوز أن يبغى عليه بسبب أنه استوفى حقه

و إذا كان المجازى غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك نصره الله فللذى بالأصل لم يعاقب أحدا إذا ظلم و جنى عليه فالنصر إليه أقرب.

*و من اعتُدِى عليه و ظُلِم فقد أُذِن له أن يقابل الجانى بمثل فعلته و لا حرج عليه فإذا عاد الجانى إلى إيذائه و بغى فإن الله ينصر المظلوم المعتدى عليه إذ لا يجوز أن يُعْتَدى عليه بسبب انتصافه لنفسه

(إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ)أى:—يعفو عن المذنبين فلا يعاجلهم بالعقوبة

(غَفُورٌ)و يغفر ذنوبهم فيزيلها و يزيل آثارها عنهم فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتى و معاملته لعباده فى جميع الأوقات بالعفو و المغفرة فينبغى لكم أيها المظلومون المجنى عليهم أن تعفوا و تصفحوا و تغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)﴿٦٠﴾

من مظاهر قدرة الله و فضله على عباده 61-66

(ذَٰلِكَ)الذى شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة هو حسن التصرف فى تقديره و تدبيره

(بِأَنَّ ٱللَّهَ)الذى(يُولِجُ)يدخل(ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ)أى:—يدخل على هذا و هذا على هذا فيأتى بالليل بعد النهار و بالنهار بعد الليل و يزيد فى أحدهما ما ينقصه في الآخر ثم بالعكس فيترتب على ذلك قيام الفصول و مصالح الليل و النهار و الشمس و القمر التى هى من أجل نعمه على العباد و هى من الضروريات لهم.

(وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ)يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات

(بَصِيرٌ)يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)﴿٦١﴾

(ذَٰلِكَ)صاحب الحكم و الأحكام(بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ)الثابت الذى لا يزال و لا يزول الأول الذى ليس قبله شيء الآخر الذى ليس بعده شيء كامل الأسماء و الصفات صادق الوعد الذى وعده حق و لقاؤه حق و دينه حق و عبادته هى الحق النافعة الباقية على الدوام.

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ)من الأصنام و الأنداد من الحيوانات و الجمادات

الذى(هُوَ ٱلْبَٰطِلُ)باطل فى نفسه و عبادته باطلة لأنها متعلقة بمضمحل فان فتبطل تبعا لغايتها و مقصودها

(وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ)

فى ذاته:— فهو عال على جميع المخلوقات و فى قدره:— فهو كامل الصفات و فى قهره:— لجميع المخلوقات

(ٱلْكَبِيرُ)فى ذاته و فى أسمائه و فى صفاته الذى من عظمته و كبريائه:—

أن الأرض قبضته يوم القيامة و السماوات مطويات بيمينه

و من كبريائه:— أن كرسيه وسع السماوات و الأرض

و من عظمته و كبريائه:—

أن نواصى العباد بيده فلا يتصرفون إلا بمشيئته و لا يتحركون و يسكنون إلا بإرادته.

*و حقيقة الكبرياء التى لا يعلمها إلا هو لا ملك مقرب و لا نبى مرسل أنها كل صفة كمال و جلال و كبرياء و عظمة فهى ثابتة له و له من تلك الصفة أجلها و أكملها

و من كبريائه:–أن العبادات كلها الصادرة من أهل السماوات و الأرض كلها المقصود منها تكبيره و تعظيمه و إجلاله و إكرامه و لهذا كان التكبير شعارا للعبادات الكبار كالصلاة و غيرها(٦٢)

*حث الله تعالى و رغَّب فى:–النظر بآياته الدالات على وحدانيته و كماله فقال:–

(أَلَمْ تَرَ)تشاهد ببصرك و بصيرتك(أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً)

و هو:المطر فينزل على أرض خاشعة مجدبة قد اغبرت أرجاؤها و يبس ما فيها من شجر و نبات

*وَ هَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا وَ هِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سَوْدَاءُ قَحْلَةٌ {فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [الْحَجِّ: 5]

(فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)قد اكتست من كل زوج كريم و صار لها بذلك منظر بهيج

إن الذى أحياها بعد موتها و همودها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميما.

*الْفَاءُ هَاهُنَا لِلتَّعْقِيبِ وَ تَعْقِيبُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ كَمَا قَالَ:

{خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [الْمُؤْمِنُونَ: 14]

(إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ)فهو يدرك بواطن الأشياء و خفياتها و سرائرها الذى يسوق إلى عبده الخير و يدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد و من لطفه:–

1–أنه يرى عبده عزته فى انتقامه و كمال اقتداره ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك

2– أنه يعلم مواقع القطر من الأرض و بذور الأرض فى باطنها فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذى خفى على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات

*عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَ أَقْطَارِهَا وَ أَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَ إِنْ صَغُرَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فَيُوَصِّلُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْمَاءِ فَيُنْبِتُهُ بِهِ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ:-

{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لُقْمَانَ: 16] وَ قَالَ: {أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ}[النَّمْلِ: 25]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الْأَنْعَامِ: 59]

وَقَالَ {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ} الْآيَةَ [يُونُسَ: 61]

(خَبِيرٌ)بسرائر الأمور و خبايا الصدور و خفايا الأمور(٦٣)

(لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ)

خلقا و عبيدا يتصرف فيهم بملكه و حكمته و كمال اقتداره ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

(وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ)بذاته الذى له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه

و من غناه:-

1-أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه و لا يواليهم من ذلة و لا يتكثر بهم من قلة

2-أنه ما اتخذ صاحبة و لا ولدا

3-أنه صمد لا يأكل و لا يشرب و لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه فهو يطعم و لا يطعم

4-أن الخلق كلهم مفتقرون إليه في إيجادهم و إعدادهم و إمدادهم و في دينهم و دنياهم

5-أنه لو اجتمع من في السماوات و من في الأرضالأحياء منهم و الأموات فى صعيد واحد فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته فأعطاهم فوق أمانيهم ما نقص ذلك من ملكه شيء

6-أن يده سحاء بالخير و البركات الليل و النهار لم يزل إفضاله على الأنفاس

7-و من غناه و كرمه ما أودعه في دار كرامته مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

(ٱلْحَمِيدُ)أى: المحمود فى ذاته و فى أسمائه:-لكونها حسنى

و فى صفاته:-لكونها كلها صفات كمال

و فى أفعاله:-لكونها دائرة بين العدل و الإحسان و الرحمة و الحكمة

و فى شرعه:- لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة و لا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة الذى له الحمد الذى يملأ ما فى السماوات و الأرض و ما بينهما و ما شاء بعدها الذى لا يحصى العباد ثناء على حمده

بل هو كما أثنى على نفسه و فوق ما يثنى عليه عباده و هو المحمود على توفيق من يوفقه و خذلان من يخذله و هو الغنى فى حمده الحميد فى غناه(٦٤)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

(أَلَمْ تَرَ)تشاهد ببصرك و قلبك نعمة ربك السابغة و أياديه الواسعة

(أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ)من حيوانات و نبات و جمادات

فجميع ما في الأرض مسخر لبنى آدم حيواناتها لركوبه و حمله و أعماله و أكله و أنواع انتفاعه و أشجارها و ثمارها يقتاتها و قد سلط على غرسها و استغلالها و معادنها يستخرجها و ينتفع بها

(وَٱلْفُلْكَ)أى:و سخر لكم الفلك و هى السفن

(تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ)

تحملكم و تحمل تجاراتكم و توصلكم من محل إلى محل و تستخرجون من البحر حلية تلبسونها

و من رحمته بكم:–(وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ)

فلولا رحمته و قدرته لسقطت السماء على الأرض فتلف ما عليها و هلك من فيها

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

أرحم بهم من والديهم و من أنفسهم و لهذا يريد لهم الخير و يريدون لها الشر و الضر

*مَعَ ظُلْمِهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرَّعْدِ: 6]

و من رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء﴿٦٥﴾

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ)أوجدكم من العدم(ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ)بعد أن أحياكم

(ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ)بعد موتكم ليجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته

(إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ)أى:–جنسه إلا من عصمه الله

(لَكَفُورٞ)جَحُودٌ لنعم الله كفور بالله لا يعترف بإحسانه بل ربما كفر بالبعث و قدرة ربه.

*كَقَوْلِهِ:{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[الْبَقَرَة: 28]

وَ قَوْلِهِ:{قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}[الْجَاثِيَة: 26]

وَ قَوْلِهِ:{قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}[غَافِر: 11]وَ مَعْنَى الْكَلَامِ:-

كَيْفَ تَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْدَادًا وَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَ الرِّزْقِ وَ التَّصَرُّفِ﴿٦٦﴾

(لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا)يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة جعلا قدريا

توجيهات إالهية فى كيفية محاجة المشركين 67-72

(مَنسَكًا)معبدا و عبادة قد تختلف في بعض الأمور مع اتفاقها على العدل و الحكمة كما قال تعالى:

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)الآية

(هُمۡ نَاسِكُوهُۖ)عاملون عليه بحسب أحوالهم فلا اعتراض على شريعة من الشرائع خصوصا من الأميين أهل الشرك و الجهل المبين فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول و التسليم و ترك الاعتراض

*و أَصلُ الْمَنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ:-هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِى يَعْتَادُهُ الْإِنْسَانُ وَ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ إِمَّا لِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.
قَالَ:وَ لِهَذَا سُمِّيَتْ مَنَاسِكُ الْحَجِّ بِذَلِكَ لِتَرْدَادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَ عُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا .

و لهذا قال:–(فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ)المكذبون لك و يعترضون على بعض(فِى ٱلۡأَمۡرِۚ)بما جئتهم به بعقولهم الفاسدة مثل:

1–منازعتهم فى حل الميتة بقياسهم الفاسد يقولون:–«تأكلون ما قتلتم و لا تأكلون ما قتل الله»

2–و كقولهم (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)

و نحو ذلك من اعتراضاتهم التى لا يلزم الجواب عن أعيانها و هم منكرون لأصل الرسالة و ليس فيها مجادلة و محاجة بانفرادها بل لكل مقام مقال

فصاحب هذا الاعتراض المنكر لرسالة الرسول إذا زعم أنه يجادل ليسترشد يقال له:–

الكلام معك فى إثبات الرسالة و عدمها و إلا فالاقتصار على هذه دليل أن مقصوده التعنت و التعجيز

*و لهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة و الموعظة الحسنة و يمضى على ذلك سواء اعترض المعترضون أم لا و أنه لا ينبغى أن يثنيك عن الدعوة شيء

لـ(إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ)معتدل موصل للمقصود متضمن علم الحق و العمل به

فأنت على ثقة من أمرك و يقين من دينك فيوجب ذلك لك الصلابة و المضى لما أمرك به ربك

و لست على أمر مشكوك فيه أو حديث مفترى فتقف مع الناس و مع أهوائهم وآرائهم و يوقفك اعتراضهم

و نظير هذا قوله تعالى:–(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

*مع أن فى قوله:–(إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ)إرشاد لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح

فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول

و الهدى:– ما تحصل به الهداية من مسائل الأصول و الفروع و هى المسائل التي يعرف حسنها و عدلها

و حكمتها بالعقل و الفطرة السليمة و هذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات و المنهيات.

*وَ هَذِهِ كَقَوْلِهِ:{وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ}[القصص: 87] ﴿٦٧﴾

*و لهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة فقال:–

(وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ)هو عالم بمقاصدكم و نياتكم

*كَقَوْلِهِ:{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}[يُونُس: 41] ﴿٦٨﴾

(ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ)بين المسلمين و الكافرين(يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ)فمجازيكم عليها فى يوم القيامة

(فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ)فى الدين

*و فى هذه الآية :-أدبٌ حسن فى الرد على مَن جادل تعنتًا و استكبارًا.

*فمن وافق الصراط المستقيم:–فهو من أهل النعيم و من زاغ عنه:– فهو من أهل الجحيم

*وَ هَذِهِ كَقَوْلِهِ:{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[الشُّورَى: 15] ﴿٦٩﴾

و من تمام حكمه:–أن يكون حكما بعلم فلذلك ذكر إحاطة علمه و إحاطة كتابه فقال:–

(أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)

لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور و بواطنها خفيها و جليها متقدمها و متأخرها

(إِنَّ ذَٰلِكَ)العلم المحيط بما فى السماء و الأرض قد أثبته الله

(فِي كِتَٰبٍۚ)و هو اللوح المحفوظ حين خلق الله القلم قال له:–« اكتب »قال: ما أكتب؟ قال:–

«اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»

(إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ)و إن كان تصوره عندكم لا يحاط به فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علما بجميع الأشياء

و أن يكتب ذلك فى كتاب مطابق للواقع.

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَ أَنَّهُ محيط بما فى السموات وَ مَا فِي الْأَرْضِ فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرُ وَ أَنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ الْكَائِنَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا وَ كَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (2653)عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:-
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خلق السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"﴿٧٠﴾

يذكر تعالى حالة المشركين به العادلين به غيره و أن حالهم أقبح الحالات و أنه لا مستند لهم على ما فعلوه

(وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا)حجة تدل عليه و تجوزه

(وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ)

و إنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين و قد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله و هو–فى نفس الأمر–له حجة ما علمها بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده و بطلانه

*ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال:–

(وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ)ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم و حل﴿٧١﴾

و هل لهؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد فى اتباع الآيات و الهدى إذا جاءهم؟

أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ذكر ذلك بقوله:–

(وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ)

التى هى آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل لم يلتفتوا إليها ولم يرفعوا بها رأسا

بل(تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ)من بغضها و كراهتها ترى وجوههم معبسة و أبشارهم مكفهرة

(يَكَادُونَ يَسۡطُونَ)يوقعون القتل و الضرب البليغ

(بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ)من شدة بغضهم و بغض الحق و عداوته

فهذه الحالة من الكفار بئس الحالة و شرها بئس الشر و لكن ثم ما هو شر منها حالتهم التى يؤولون إليها

فلهذا قال:–(قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ)

فهذه شرها طويل عريض و مكروهها و آلامها تزداد على الدوام.

*النَّارُ وَ عَذَابُهَا وَ نَكَالُهَا أَشَدُّ وَ أَشَقُّ وَ أَطَمُّ وَ أَعْظَمُ مِمَّا تُخَوِّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَ عَذَابُ الْآخِرَةِ عَلَى صَنِيعِكُمْ هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا تَنَالُونَ مِنْهُمْ إِنْ نِلْتُمْ بِزَعْمِكُمْ وَ إِرَادَتِكُمْ.

(وَبِئۡسَ)أى:-النَّارُ(ٱلۡمَصِيرُ)مَنْزِلًا وَ مَقِيلًا وَ مَرْجِعًا وَ مَوْئِلًا وَ مُقَامًا{إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}[الفرقان: 66] ﴿٧٢﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

*هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان و بيان نقصان عقول من عبدها و ضعف الجميع فقال:-

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ)هذا خطاب للمؤمنين و الكفار المؤمنون يزدادون علما و بصيرة و الكافرون تقوم عليهم الحجة

(ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ)أى:ألقوا إليه أسماعكم و تفهموا ما احتوى عليه و لا يصادف منكم قلوبا لاهية و أسماعا معرضة بل ألقوا إليه القلوب و الأسماع

التمثل بأصنام المشركين التى تعبد من دون الله 73-76

و هو هذا:(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)شمل كل ما يدعى من دون الله

(لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا)الذى هو من أحقر المخلوقات و أخسها

فليس فى قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف فما فوقه من باب أولى(وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ)

*البخارى 5953 - عن أَبِي زُرْعَةَ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ فَرَأَى أَعْلاَهَا مُصَوِّرًا يُصَوِّرُ قَالَ:- سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-«وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِى(يصنع ويقدر كخلقى فى الصورة) فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً وَ لْيَخْلُقُوا ذَرَّةً(نملة صغيرة)» ثُمَّ دَعَا بِتَوْرٍ(إناء كالطست)مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ يَدَيْهِ حَتَّى بَلَغَ إِبْطَهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشَىْءٌ سَمِعْتَهُ(أى تبليغ الماء إلى الإبط سمعته من النبى ﷺ) مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟قَالَ: مُنْتَهَى الحِلْيَةِ أى التبليغ إلى الإبط ليحصل على منتهى الحلية في الجنة للمؤمن لقوله ﷺ(تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء).

بل أبلغ من ذلك(وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ)و هذا غاية ما يصير من العجز.

(ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ)الذى هو المعبود من دون الله(وَٱلۡمَطۡلُوبُ)

الذى هو الذباب فكل منهما ضعيف و أضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف و ينزله منزلة رب العالمين﴿٧٣﴾

(مَا قَدَرُواْ)فهذا ما قدر(ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ)حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه بالغنى القوى من جميع

الوجوه سوى من لا يملك لنفسه و لا لغيره نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا بمن هو النافع الضار المعطى المانع مالك الملك و المتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

(إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ)كامل القوة(عَزِيزٌ)كامل العزة(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) [الرُّوم: 27]

من كمال قوته و عزته:-

1-أن نواصى الخلق بيديه

2-و أنه لا يتحرك متحرك و لا يسكن ساكن إلا بإرادته و مشيئته فما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن

و من كمال قوته:-

1-أنه يمسك السماوات و الأرض أن تزولا

2-أنه يبعث الخلق كلهم أولهم و آخرهم بصيحة واحدة

3-أنه أهلك الجبابرة و الأمم العاتية بشيء يسير و سوط من عذابه.

*لما بين تعالى كماله و ضعف الأصنام و أنه المعبود حقا بين حالة الرسل و تميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال:-(ٱللَّهُ يَصۡطَفِي)يختار و يجتبى

(مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ)رسلا

يكونون أزكى ذلك النوع و أجمعه لصفات المجد و أحقه بالاصطفاء فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق و الذى اختارهم و اصطفاهم ليس جاهلا بحقائق الأشياء أو يعلم شيئا دون شيء

و إنما المُصْطَفِي لهم السميع البصير الذى قد أحاط علمه و سمعه و بصره بجميع الأشياء فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك و أن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى:-(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

(وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ)أى: هو يرسل الرسل يدعون الناس إلى الله فمنهم المجيب

و منهم الراد لدعوتهم و منهم العامل و منهم الناكل فهذا وظيفة الرسل و أما الجزاء على تلك الأعمال فمصيرها إلى الله فلا تعدم منه فضلا أو عدلا.كَمَا قَالَ:{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا26 إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا27 لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}[الجِنّ]

*فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ شَهِيدٌ عَلَى مَا يُقَالُ لَهُمْ حَافِظٌ لَهُمْ نَاصِرٌ لِجَنَابِهِمْ

*{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [الْمَائِدَة: 67]

توجيهات إالهية للمؤمنين 77-78

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة و خص منها الركوع و السجود لفضلهما و ركنيتهما و عبادته التى هى قرة العيون و سلوة القلب المحزون و أن ربوبيته و إحسانه على العباد يقتضى منهم أن يخلصوا له العبادة

(وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ)يأمرهم بفعل الخير عموما. و علق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال:-

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)تفوزون بالمطلوب المرغوب و تنجون من المكروه المرهوب
فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق و السعى فى نفع عبيده فمن وفق لذلك فله القدح المعلى
من السعادة و النجاح و الفلاح ﴿٧٧﴾

(وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ)

و الجهاد بذل الوسع فى حصول الغرض المطلوب فالجهاد فى الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله
و دعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك من نصيحة و تعليم و قتال و أدب و زجر و وعظ و غير
ذلك.

(هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ)اختاركم–يا معشر المسلمين–من بين الناس و اختار لكم الدين و رضيه لكم و اختار لكم أفضل
الكتب و أفضل الرسل فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام و لما كان قوله:–
(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق أو تكليف ما يشق احترز منه
بقوله:–(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ)مشقة و عسر
*بل يسره غاية التيسير و سهله بغاية السهولة فأولا ما أمر و ألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها
و لا يؤودها ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف خفف ما أمر به إما بإسقاطه أو إسقاط بعضه.
و يؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية و هى أن:–«المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات»
*فيدخل فى ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف فى كتب الأحكام.
*مَا كَلَّفَكُمْ مَا لَا تُطِيقُونَ وَ مَا أَلْزَمَكُمْ بِشَيْءٍ فَشَقَ عَلَيْكُمْ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَ مَخْرَجًا
*وَ لِهَذَا قَالَ ﷺ:"بُعِثْتُ بالحنِيفيَّة السَّمحة"(سلسلة الأحاديث الصحيحة و شيء من فقهها وفوائدها رقم2924)
وَ قَالَ لِمُعَاذٍ وَ أَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا أميرين إِلَى الْيَمَنِ:-"بَشِّرا و لا تُنَفِّرَا و يَسِّرا وَ لَا تُعسِّرَا"(البخارى3038)

(مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ)

أى:–هذه الملة المذكورة و الأوامر المزبورة ملة أبيكم إبراهيم التى ما زال عليها فالزموها و استمسكوا بها.
*قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: نُصِبَ عَلَى تَقْدِيرِ:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}أَيْ:مِنْ ضِيقٍ بَلْ وَسَّعه عَلَيْكُمْ كَمِلَّةِ
أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ. قَالَ: وَ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ: الْزَمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ.
*قُلْتُ:وَ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}[الْأَنْعَامِ 161]

(هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ)أى: فى الكتب السابقة مذكورون و مشهورون

(وَفِي هَٰذَا)الكتاب و هذا الشرع. أى:–ما زال هذا الاسم لكم قديما و حديثا
*السنن الكبرى8815 - عن مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلَامٍ أَنَّ أَخَاهُ زَيْدُ بْنُ سَلَامٍ أَخْبَرَهُ عَنْ
جَدِّهِ أَبِي سَلَامٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْحَارِثُ الْأَشْعَرِيُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-
«مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ إِنْ صَامَ وَ صَلَّى قَالَ:-

«نَعَمْ وَ إِنْ صَامَ وَ صَلَّى فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللهِ الَّتِي سَمَّاكُمُ اللهُ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ»

(لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ)بأعمالكم خيرها و شرها

(وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ)لكونكم خير أمة أخرجت للناس أمة وسطا عدلا خيارا تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم و تشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه(تقدم فى البقرة:143)

(فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)بأركانها و شروطها و حدودها و جميع لوازمها

(وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ)المفروضة لمستحقيها شكرا لله على ما أولاكم

(وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ)أى:امتنعوا به و توكلوا عليه فى ذلك و لا تتكلوا على حولكم و قوتكم

(هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ)الذى يتولى أموركم فيدبركم بحسن تدبيره و يصرفكم على أحسن تقديره

(فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ)لمن تولاه فحصل له مطلوبه(وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ)لمن استنصره فدفع عنه المكروه(٧٨)